علي مولا

المؤلفة الحائزة
على جائزة نوبل
2009

هِيرْتا موللر

ما الإنسان سوى دُرّاج كبير في هذه الدنيا

«رواية»

ترجمة : نبيل الحفار

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

ما الإنسان سوى دُرّاج كبير في هذه الدنيا
هيرتا موللر
2011PT2673.U29234 M45
Müller, Herta
[Mensch ist ein grosser Fasan auf der Welt]
ما الإنسان سوى دراج كبير في هذه الدنيا: قصة طويلة / هيرتا موللر: ترجمها من الألمانية نبيل الحفار.-ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
ص 154 : 12.5×19 سم.
ترجمة كتاب : Der mensch ist ein grosser fasan auf der Welt
تدمك: 978-9948-01-766-0
1.القصص الألمانية 2. حفار، نبيل، -1954 أ. حفار، نبيل، -1954 ب.العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Herta Müller
Der Mensch ist ein großer Fasan auf der Welt

First published by Rotbuch Verlag 1986



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



http://www.fask.uni-mainz.de
Johannes Gutenberg-Universität Mainz
Fachbereich Translations-, Sprach- und Kulturwissenschaft
An der Hochschule 2, 76726 Germersheim
Postfach 11 50, 76711 Germersheim
Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

نبذة عن المترجم :

- مواليد دمشق 1945.
- إجازة في الأدب الألماني 1969 لايبزيغ.
- ماجستير في الأدب الألماني 1971 لايبزيغ.
- دكتوراه في العلوم المسرحية 1989 برلين.
- رئيس قسم الدراسات المسرحية في المعهد العالي للفنون المسرحية دمشق ورئيس تحرير مجلة «الحياة المسرحية» دمشق. له ترجمات عدة في مجال المسرح، الرواية، القصة، البحوث من الألمانية.
- حائز على جائزة الأخوين غريم للترجمة برلين 1982.
- حائز على جائزة معهد غوته للترجمة 2009.

من ضمن ما ترجمه لمشروع «كلمة»:

- سلينا، شقيق النوم، بريشت المسرحيات.
- فتحةُ الجفنِ بين الشرقِ والغربِ.
- تُظهِرُ بياضَ العينِ.
- لكن بؤبو العين غير مرئي.

نبذة عن المؤلفة :

ولدت هيرتا موللر في عام 1953 في قرية بَنات في رومانيا، وهي قرية ينطق سكانها بالألمانية. وبعد أن مُنعت منَ تشر أعمالها، تمكنت في عام 1987 من مغادرة رومانيا إلى برلين، حيث ما زالت تقيم حتى اليوم.

يُذكر من أشهر أعمالها المجموعة القصصية «مسافرون على ساق واحدة» ورواية «قلب حيوان» التي فازت بجائزة «إيمپاك دبلن الأدبية»، وهي أكثر الجوائز الأدبية قيمة على الصعيد العالمي والتي تمنح لعمل أدبي واحد. إضافة إلى ذلك حصلت هيرتا موللر على جوائز أخرى متعددة، منها جائزة «يوزف برايتْباخ» وجائزة «سيماء الأدبية» وجائزة «هاينريش فون كلايست» وجائزة «فرانتس كافكا» وجائزة «ڤالتر هازِنْكلڤر» وأخيراً جائزة «نوبل للآدب 2009».

هيِرْتا موللر

ما الإنسان سوى دُرّاج كبير في هذه الدنيا

ترجمة: نبيل الحفار
مراجعة: مصطفى سليمان

ما الإنسان سوى دُرّاج
كبير في هذه الدنيا

إنغيهبورغ باخمان
الموضع المنخفض

حول نصب المقاتل ثمة ورود، تنمو بكثافة دغل يخنق الحشائش. إنها تزهر بيضاء صغيرة وملتفة على بعضها كالورق. تصدر حفيفاً. الفجر يبزغ. سرعان ما سيطلع النهار.

كل صباح عندما يمر ڤينديش راكباً دراجته على الطريق وحيداً، يعدُّ الساعات. أمام نصب المقاتل يعد السنوات وعند أول شجرة حور وراءه، حيث تمر الدراجة دائماً بالموضع المنخفض نفسه، يعد الأيام. ومساء عندما يغلق ڤينديش الطاحون يكرر عدَّ السنوات والأيام.

من مسافة بعيدة يرى الورود البيضاء الصغيرة ونصب المقاتل وشجرة الحور. وعندما يغطي الضباب المكان يصبح بياض الورود وبياض الحجارة أثناء مروره بالدراجة قريباً منه جداً. يعبر ڤينديش خلاله. يواصل ڤينديش الركوب بوجهه الرطب إلى أن يصل إلى هناك. كانت لدغل الورود مرتين أشواك عارية وكان لون الأعشاب تحتها كالصدأ. مرتين كانت الحورة عارية بحيث كاد خشبها أن يتكسر. مرتين غطى الثلج الطرقات.

يعدُّ ڤينديش سنتين أمام نصب المقاتل ومئتين وواحداً وعشرين يوماً في الموضع المنخفض عند الحورة.

كل يوم عندما يتعرض ڤينديش للارتجاج في الموضع المنخفض يفكر: «النهاية قريبة». منذ أن قرر ڤينديش الهجرة بات يرى النهاية في كل مكان في القرية، والزمنَ المتوقف لأولئك الذين يريدون البقاء. ويرى في ما وراء النهاية أن الحارس الليلي سيبقى.

وبعد أن يعد ڤينديش مئتين وواحداً وعشرين يوماً وبعد أن يكون الموضع المنخفض قد رجَّه، يترجل لأول مرة. يسند الدراجة إلى شجرة الحور. لخطواته صوت عال. من بستان الكرز تطير حمامات برية. لونها رمادي كالضوء. لكن الضجيج فقط هو ما يجعلها تبدو مختلفة.

يرسم ڤينديش الصليب. قبضة الباب مبتلة، تلتصق بيده. باب بستان الكرز موصد. القديس أنطونيوس يقف وراء الجدار، يحمل زنبقة وكتاباً بنياً. إنه مسجون.

يشعر ڤينديش بالبرد. ينظر إلى الطريق. عند نهايته تبدأ حشائش القرية. هناك عند نهايته يمر رجل. الرجل خيط أسود يمشي نحو النباتات. الحشائش النامية ترفعه عن الأرض.

الضفدع البري

الطاحون صامتة. الجدران صامتة، والسقف صامت والدواليب صامتة. ضغط ڤينديش على القاطع وأطفأ النور. ساد الليل بين الدواليب وابتلع الهواء المعتم غبار الطحين والذباب والأكياس.

الحارس الليلي يجلس على مقعد الطاحون. إنه نائم. فمه مفتوح. تحت المقعد تلتمع عينا كلبه.

يحمل ڤينديش الكيس بيديه وركبتيه. يسنده إلى جدار الطاحون. ينظر الكلب ويتثاءب فيظهر صفًّا أسنانه البيضاء.

يدور المفتاح في ثقب قفل باب الطاحون. تُسمع طقته بين أصابع ڤينديش الذي يعدّ. يسمع ڤينديش ضربات في صدغيه ويفكر: «رأسي ساعة». يضع المفتاح في جيبه. الكلب ينبح. يقول ڤينديش بصوت عالٍ: «سأملؤها حتى يتقطع الزنمبرك».

يُنزل الحارس الليلي قبعته على جبينه. يفتح عينيه، يتثاءب ويقول: «جندي أثناء نوبة حراسة».

يمشي ڤينديش نحو بركة الطاحون. هناك على الضفة كومة حشيش مجفف، تنعكس صورتها على صفحة البركة كبقعة قاتمة تنسحب نحو القاع مثل قمع. يسحب

ڤينديش دراجته من القش.

«هناك جرذ في القش» يقول الحارس الليلي. يلتقط ڤينديش عيدان القش عن سرج الدراجة، يرميها في الماء ويقول: «رأيته، قفز إلى البركة» عيدان القش تسبح مثل شعرات، تدفعها دوامة صغيرة للدوران. القمع القاتم يسبح. ينظر ڤينديش إلى صورته المتحركة.

يدوس الحارس الليلي على بطن الكلب. الكلب يعوي. ينظر ڤينديش إلى القمع ويسمع العواء من تحت الماء. «الليالي طويلة»، يقول الحارس الليلي. يتراجع ڤينديش خطوة عن الضفة. يرى الصورة الساكنة لكومة الحشيش المجفف المتقاطعة مع مسار الضفة. الصورة ساكنة، لا علاقة لها بالقمع. الجو مضيء. أشد إضاءة من الليل.

الجريدة تخشخش. يقول الحارس الليلي: «معدتي خاوية». يخرج من الجريدة دهناً وخبزاً. السكين تلمع في يده. يمضغ. يحك معصمه بحد السكين.

يسحب ڤينديش الدراجة إلى جانبه. ينظر إلى القمر. يقول الحارس الليلي بصوت خافت وهو يلوك لقمة: «ما الإنسان سوى دُرّاج كبير في هذه الدنيا». يرفع ڤينديش الكيس ويضعه على الدراجة ويقول: «الإنسان قوي، أقوى من الحيوان».

زاوية الجريدة ترفرف. وتشدها الريح كأنها يد. يضع الحارس الليلي السكين على المقعد ويقول: «نمت قليلاً». كان ڤينديش لحظتها منحنياً فوق الدراجة. يرفع رأسه ويقول: «وأنا أيقظتك». فيجيب الحارس الليلي: «ليس أنت، زوجتي أيقظتني». ينفض فتات الخبز عن سترته ويتابع: «كنت أعرف أني لن أستطيع النوم. القمر كبير. حلمت بالضفدع البري. كنت مكدوداً ولم أستطع الذهاب للنوم. كان الضفدع البري مستلقياً في السرير. تكلمتُ مع زوجتي. نظر إلي الضفدع البري بعيني زوجتي. كانت له ضفيرة زوجتي. كان مرتدياً قميص نومها، وكان القميص مرفوعاً حتى البطن. قلت، غطي نفسك، فخذاك ذابلان. قلت هذا لزوجتي. فسحب الضفدع البري قميص النوم على الفخذين. جلست على الكرسي إلى جانب السرير. ابتسم الضفدع البري بفم زوجتي وقال: «الكرسي يصدر صريراً». لم يصدر عن الكرسي أي صرير. وضع الضفدع البري ضفيرة زوجتي على كتفه. كانت بطول قميص النوم. قلت: «لقد طال شعركِ». رفع الضفدع البري رأسه وصرخ: «أنت سكران، وستقع من على الكرسي».

على القمر لطخة سحابة حمراء. يتكئ ڤينديش على جدار الطاحون. يقول الحارس الليلي: «الإنسان غبي

ومستعد دائماً للصفح». الكلب يلتهم قطعة سميكة من الدهن. يتابع الحارس الليلي: «لقد غفرت لها كل شيء. غفرت لها الفرّان. غفرت لها سوء سلوكها في المدينة». يمرر رأس إصبعه على حد السكين ويقول: «القرية كلها سخرت مني». ڤينديش يتنهد، فيما يتابع الحارس الليلي: «ما عدت قادراً على النظر في عينيها. أمر واحد فقط لم أغفره لها، أن تموت بهذه السرعة وكأنها مقطوعة من شجرة».

يقول ڤينديش: «الله أعلم بسبب وجود النساء». يهز الحارس الليلي كتفيه ويقول: «ليس من أجلنا. لا من أجلي ولا من أجلك. لا أدري لمن». يربت الحارس الليلي على كلبه. «والبنات، الله أعلم، سيصرن أيضاً نساء»، يقول ڤينديش.

ثمة ظل على الدراجة، وظل على الحشائش. «ابنتي»، يقول ڤينديش وهو يزن الجملة في رأسة «ابنتي أمالي أيضاً لم تعد عذراء». ينظر الحارس الليلي إلى لطخة السحابة الحمراء. يتابع ڤينديش: «بطتا ساقيها بحجم بطيختين. وكما قلت أنت، لم أعد قادراً على النظر في عينيها». الكلب يدير رأسه. «العينان تكذبان، أما بطتا الساقين فلا تكذبان». يقول الحارس الليلي وهو يباعد ما بين حذاءيه «راقب مشية ابنتك. إذا كانت تضع رأس حذائها جانباً أثناء المشي، فقد قضي الأمر».

يدير الحارس الليلي قبعته في يده بينما يقعي الكلب وينظر، وڤينديش يصمت. «ستتشكل ندى والطحين سيصبح رطباً ورئيس البلدية سينزعج»، يقول الحارس الليلي.

فوق البركة يخفق طائر بجناحيه ببطء وبخط مستقيم كخيط ممدود فوق الماء مباشرة، وكأنه يطير فوق أرض. يتابعه ڤينديش بنظره ويقول: «مثل قطة». «إنها بومة»، يقول الحارس الليلي ويضع يده على فمه ويتابع: «في دار كرونر ما زال النور مضاء منذ ليال ثلاث». يجر ڤينديش الدراجة ويقول: «لا يمكنها أن تموت، فالبومة لا تقف على أي سطح».

يمشي ڤينديش بين الحشائش وهو ينظر إلى القمر. «إسمع مني يا ڤينديش، النساء خائنات».

الإبرة

ما زال النور مضاء في دار النجار. يتوقف ڤينديش. زجاج النافذة يلتمع ويعكس الطريق كمرآة. يعكس الأشجار. تخترق الصورة الستارة بباقات أزهارها المطرزة إلى الغرفة. هناك غطاء تابوت مسنود إلى الجدار بجانب المدفأة الحجرية، بانتظار موت العجوز كرونر. اسمها مكتوب على غطاء التابوت. على الرغم من الأثاث تبدو الغرفة فارغة، من شدة النور.

يجلس النجار على الكرسي وظهره إلى الطاولة. زوجته تقف أمامه بقميص نوم مخطط. بيدها إبرة. في الإبرة خيط رمادي. يمد النجار سبابته باتجاه زوجته. تُخرج زوجته بالإبرة سلخة خشب من سبابته. سبابته تنزف. يسحب النجار إصبعه. تُسقط المرأة الإبرة. تغمض عينيها وتضحك. يمد النجار يده من تحت قميص نومها فيرتفع القميص وتتثنى خطوطه. يمسك النجار صدرها بيده ذات الإصبع النازف. ثدياها ممتلئان ويرتجفان. يعلق الخيط الرمادي على ساق الكرسي. تتأرجح الإبرة ورأسها نحو الأسفل.

هناك سرير إلى جانب غطاء التابوت. المخدة مغلفة

بالدامسكو المنقط بنقاط صغيرة وكبيرة. السرير مكشوف. وغطاؤه أبيض.

تطير البومة عابرة إلى جانب النافذة. تبقى صورتها منعكسة في الزجاج طوال خفق جناحين، وترتعد أثناء طيرانها. يسقط النور مائلاً فتتضاعف صورة البومة.

فوق السرير ثمة صورة محاطة بإطار أسود. إنها أم النجار تميل بغطاء رأسها على حافة قبعة زوجها. هناك بقعة على زجاج الصورة. البقعة على ذقن أم النجار. إنها تبتسم مشارفة على الموت. في أقل من سنة. تبتسم في غرفة تكاد جدرانها تتلاصق ببعضها.

عند البحرة يدور دولاب الدراجة، لأن القمر كبير ويشرب الماء، لأن الريح تعلق بأسياخ الدولاب. أصبح الكيس رطباً. ڤينديش يفكر: «الكيس مثل ميت مركون خلفي».

الأضاليا البيضاء

في حر آب/أغسطس وضعت أم النجار بطيخة في دلو وأنزلت الدلو في البئر. تماوج ماء البئر حول الدلو، وقرقر حول القشرة الخضراء. برَّد الماء البطيخة.

ذهبت أم النجار إلى البستان وبيدها السكينة الكبيرة. والطريق إلى البستان كان مجرى الماء. الخس كان ناضجاً، وأوراقه متلاصقة ببعضها من الحليب الأبيض الذي يرشح من القرميات. حملت أم النجار السكين عبر المجرى. عند بداية السور ونهاية البستان تنمو الأضاليا البيضاء وتصل حتى كتفها. تشممت أم النجار الأضاليا. تشممت الأوراق البيضاء طويلاً. تنشقت الأضاليا. فركت جبهتها ونظرت نحو حوش الدار.

بالسكين الكبيرة قطعت أم النجار الأضاليا البيضاء.

«البطيخة كانت مجرد ذريعة»، قال النجار بعد الدفن وأردف: «الأضاليا كانت شؤمها». وقالت جارة النجار: «الأضاليا كانت وجهاً متوهماً».

«بسبب الجفاف الشديد هذا الصيف» قالت زوجة النجار «كانت الأضاليا ممتلئة بأوراق بيضاء ملتفة، ونمت وارتفعت بصورة لا نعرفها في الأضاليا. ولأن هذا الصيف

كان بلا ريح فإنها لم تسقط. رائحتها تضوعت وانتهت، لكنها لم تذبل».

«هذا لا يحتمل» قال النجار «لا أحد يحتمل هذا».

لا أحد يعرف ما فعلته أم النجار بالأضاليا المقطوعة. فهي لم تحضرها إلى الدار، ولم تضعها في الغرفة، وفي البستان أيضاً لم يكن هناك أثر للأضاليا.

قال النجار: «جاءت من البستان، وكانت السكين الكبيرة بيدها. وكان ثمة في عينيها شيء من الأضاليا. بياض عينيها كان جافاً».

«يحتمل» قال النجار «أنها قد انتزعت أوراق الأضاليا بينما كانت تنتظر البطيخة لتبرد. انتزعتها وجمعتها في يدها. لم تكن أي وريقة منثورة على الأرض. وكأن البستان غرفة».

«أظن»، قال النجار «أنها قد حفرت بالسكين حفرة في الأرض ودفنت الأضاليا».

بعد العصر سحبت أم النجار الدلو من البئر. حملت البطيخة إلى طاولة المطبخ. طعنت القشرة الخضراء برأس السكين. أدارت ذراعها بالسكين بشكل دائري وقطعت البطيخة نصفين، انهارا على الجانبين وسمع صوت حشرجة. في الدلو، في البئر وعلى طاولة المطبخ كانت

البطيخة ما تزال حية.

فتحت أم النجار عينيها على آخرهما. بسبب جفاف عينيها كما الأضاليا، فإنهما لم تتَّسعا. سال العصير من حد السكين قطرة قطرة. نظرت بعينيها الصغيرتين بخبث إلى لب البطيخة الأحمر. كانت البذور السوداء نابتة فوق بعضها مثل أسنان مشط.

لم تقطع أم النجار البطيخة إلى شرائح. وضعت نصفي البطيخة أمامها وحفرت اللب الأحمر بالسكين وأكلته: «لم يسبق أن رأيت عينين أكثر إدماناً من عينيها حينذاك»، قال النجار.

أخذ العصير الأحمر يقطر على طاولة المطبخ، ومن زاويتي فمها. صار يقطر من كوعيها على الأرض التي صارت دبقة.

«لم يسبق أن كانت أسنان أمي بهذا البياض وهذه البرودة»، قال النجار وتابع: «أخذت تأكل وتقول: «لا تنظر إلي هكذا، لا تنظر إلى فمي». كانت تبصق البذور السوداء على الطاولة».

«أبعدت نظري عنها. لم أغادر المطبخ. كنت خائفاً من البطيخة»، قال النجار، «نظرت من النافذة إلى الطريق. رأيت رجلاً غريباً عابراً. عبر بسرعة وكان يكلم نفسه. سمعت من

ورائي صوت حفر أمي بالسكين. صوت مضغها وصوت بلعها. قلت، من دون أن ألتفت إليها، أمي، توقفي عن الأكل».

رفعت أم النجار يدها. «أخذت تصرخ، فالتفت نحوها، لأنها أخذت تصرخ»، قال النجار وتابع: «هددتني بالسكين وهي تصيح: «هذا ليس صيفاً، وأنت لست إنساناً. أشعر بضغط في جبيني. أشعر بأحشائي تحترق. هذا صيف يرمي بنيرانه من السنوات كلها. ليس هناك ما يجعلني أبترد سوى البطيخة».

حجارة رصف الطريق غير مستوية وضيقة. البومة تنعق وراء الأشجار. إنها تبحث لنفسها عن سقف. الدور تنتصب بيضاء مطلية بالكلس.

الريح تدق على الخشب. إنها تخيط. الريح تخبط كيساً في التربة.

يسمع ڤينديش صوت زوجته. إنها تقول: «متوحش». كل مساء في السرير عندما يلتفت ڤينديش بأنفاسه نحوها، تقول: «متوحش».

لم يعد لديها رحم في بطنها منذ سنتين. «الطبيب منع ذلك» ، تقول وتردف: «لن أنهك مثانتي كي أرضيك».

عندما تقول ذلك يحس ڤينديش بغضبها البارد بين وجهها ووجهه. تمسك كتف ڤينديش. قد تستغرق وقتاً أحياناً حتى تجد كتفه. وعندما تجده تقول في العتمة في أذن ڤينديش: «عمرك يؤهلك لأن تصبح جداً. زمننا نحن انتهى».

في الصيف الماضي كان ڤينديش عائداً إلى داره، حاملاً على دراجته كيسَيْ طحين.

دق بإصبعه على إحدى النوافذ. أشعل رئيس البلدية مصباح جيب ووجه ضوءه عبر الستارة ثم قال: «لماذا الدق؟

ضع الطحين في الحوش. البوابة مفتوحة». كان صوته نائماً. في الليل هبت عاصفة رعدية. سقط شعاع برق على الحشيش أمام النافذة. أطفأ رئيس البلدية مصباح الجيب. استيقظ صوته وعلا عندما قال: «خمس حمولات أخرى يا ڤينديش، والنقود في رأس السنة. وفي عيد الفصح تحصل على الجواز». قصف الرعد. نظر رئيس البلدية إلى زجاج النافذة وقال: «ضع الطحين تحت السقف، إذ إنها ستمطر».

«منذ ذلك الحين صار عدد الحمولات اثنتي عشرة، إضافة إلى عشرة آلاف لاي[1]، وعيد الفصح مضى منذ زمن طويل»، يفكر ڤينديش. لم يعد يدق على النافذة، بل يفتح البوابة مباشرة. يحمل الكيس على بطنه ويضعه في الحوش. وحتى في حال غياب المطر، يضع ڤينديش الكيس تحت السقف.

الدراجة خفيفة. إنها تدرج فيما يمسكها ڤينديش إلى جانبه. عندما تعبر الدراجة الحشيش لا يسمع ڤينديش خطواته.

في ليلة العاصفة تلك كانت جميع النوافذ معتمة. وقف ڤينديش في الممر الطويل. مزَّق الأرض شعاع برق، ضغطَ قصف الرعد الحوش في الشق. لم تسمع زوجة ڤينديش

(1) لاي: العملة الرسمية في رومانيا.

دوران المفتاح في قفل الباب.

بقي ڤينديش واقفاً في ردهة المدخل. تجاوز الرعد القرية وسقطت الصاعقة وراء البساتين، فساد الليلَ سكونٌ بارد. أحس ڤينديش بالبرودة في حدقتي عينيه. انتابه شعور بأن الليل سيتكسر وبأن الجو فوق القرية سيضيء بصورة يغشى لها البصر. وقف ڤينديش في الردهة عارفاً بأنه لو لم يدخل الدار، لرأى عبر البساتين وخلالها النهاية الرفيعة للأشياء كلها ونهايته هو في كل مكان.

من وراء الباب سمع ڤينديش تأوه زوجته الرتيب والعنيد. مثل آلة خياطة.

دفع ڤينديش باب غرفة النوم وضغط مفتاح النور. كان ساقا زوجته منتصبين فوق الشرشف مثل مصراعي نافذة مشرعين ارتعدا في النور. فتحت زوجة ڤينديش عينيها. لم يغش النور نظرتها. كانت جامدة فحسب.

انحنى ڤينديش وفك رباط حذائه. نظر إلى حذائه وقال: «هكذا إذن. هكذا هو الحال يا سيدتي المحترمة». وضعت زوجة ڤينديش يدها على وجهها. نقلت ساقيها وأنزلتهما على طرف السرير، وأخذت تضغطهما إلى بعضهما إلى أن لم يعد ڤينديش يرى سوى ساق واحدة وكعبين فقط.

أدارت زوجة ڤينديش وجهها نحو الجدار وأخذت

تبكي بصوت عال. بكت طويلاً بصوت سنوات صباها. بكت قليلاً بصوت عمرها وبخفوت. نشجت ثلاث مرات بصوت امرأة أخرى، ثم سكتت.

أطفأ ڤينديش النور. ودخل السرير الدافئ. أحس بتعرُّق زوجته وكأنها أفرغت بطنها على السرير.

سمع كيف ضغطها النوم إلى عمق بعيد. لم يعد يسمع سوى قرقرة تنفسها الذي كان متعباً وفارغاً وبعيداً عن الأمور كلها. كان تنفسها يقرقر بعيداً عن الأشياء كلها، بعيداً عن نهايته الذاتية.

في تلك الليلة كان نومها نائياً بحيث لم يكن بوسع أي حلم أن يدركه.

بقع سوداء

وراء شجرة التفاح تنتصب نوافذ الفرّاء. إنها مضاءة جيداً. «لقد حصل على الجواز»، يفكر ڤينديش. النوافذ ساطعة وزجاجها عار. فالفراء باع كل شيء. الغرف فارغة. «باعوا الستائر»، يقول ڤينديش لنفسه.

يستند الفرّاء إلى المدفأة الحجرية. هناك صحون بيضاء على الأرض، وأدوات طعام على رف النافذة. معطف الفراء الأسود معلق على قبضة الباب. تنحني زوجة الفراء متنقلة بين الحقائب الكبيرة. يرى ڤينديش يديها اللتين ترميان ظلالاً على الجدران العارية للغرفة. تستطيلان وتنثنيان. ذراعاها متموجتان مثل غصنين فوق الماء. الفراء يعدّ نقوداً. يضع رزمة الأوراق المالية في أنبوب دخان المدفأة الحجرية.

الخزانة مستطيل أبيض. السريران إطاران أبيضان. الجدار في ما بينهما بقع سوداء. أرض الغرفة مائلة. ترتفع. تصعد عالياً على الجدار. وتقف أمام الباب. يعدُّ الفراء رزمة النقود الثانية. الأرض ستغطيه. تنفخ زوجة الفراء الغبار عن قبعة الفرو. سترفعها الأرض حتى السقف. إلى جانب المدفأة الحجرية تركت الساعة الجدارية بقعة بيضاء طويلة. إلى جانب المدفأة الحجرية عُلِّق الوقت.

يغمض ڤينديش عينيه. «الوقت انتهى»، يفكر ڤينديش. ويسمع الساعة البيضاء تتك ويرى ميناء الأرقام ببقعه السوداء. الوقت بلا عقارب.

البقع السوداء هي التي تدور فحسب. إنها تتدافع. تدفع نفسها خارج البقعة البيضاء. وتتساقط على طول الجدار. صارت البقع هي الأرض. البقع السوداء هي الأرض في الغرفة الأخرى.

ينحني رودي على الأرض في الغرفة الخاوية. تصطف أمامه كؤوسه الملونة في صفوف طويلة. وحلقات. الحقيبة الفارغة مفتوحة إلى جانب رودي. هناك لوحة على الجدار. إنها ليست صورة. الإطار من زجاج أخضر. وداخله هناك زجاج حليبي اللون بموجات حمراء.

تحلق البومة فوق البساتين. نعيبها صادح. تحويمها عميق. طيرانها ممتزج بالليل. «إنها قطة»، يفكر ڤينديش، «قطة تطير».

يرفع رودي أمام عينه ملعقة من زجاج أزرق. اتسع بياض عينه. حدقته كرة مبلولة لماعة في الملعقة. أرض الغرفة تدفُق ألواناً نحو أطرافها. الوقت يدفق أمواجاً من الغرفة الأخرى. البقع السوداء تسبح مع الأمواج. اللمبة ترتعد. وتمزق الضوء. تسبح النافذتان متداخلتين في بعضهما. أرض الغرفتين تضغط

الجدران أمامها. يمسك ڤينديش رأسه بيده. فينتقل نبض يده إلى رأسه. ويدق صدغه في رسغه. الأرضيتان ترتفعان، تقتربان، تتلامسان. تُغرقان الشق الرفيع بينهما. وتصبحان ثقيلتين، والتربة ستتحطم. الزجاج سيتوهج، سيصير ورماً مرتعداً في الحقيبة.

يفتح ڤينديش فمه. يشعر بالبقع السوداء تنمو في وجهه.

رودي مهندس. عمل طوال ثلاث سنوات في معمل للزجاج يقع في الجبال.

خلال هذه السنوات الثلاث سافر الفرّاء مرة واحدة لزيارة ابنه. «سأمضي أسبوعاً عند رودي في الجبال»، قال الفراء لڤينديش.

بعد ثلاثة أيام عاد الفرّاء. كان خدّاه متوردين من هواء الجبال، وعيناه مقرحتين من السهاد. «لم أستطع أن أنام هناك»، قال الفراء «لم أستطع أن أغمض عيني. في الليل كنت أحس بالجبال في رأسي».

«الجبال هناك حيثما نظرت»، حكى الفراء لڤينديش، «على الطريق إلى الجبال هناك أنفاق. هي أيضاً جبال. سوداء كالليل. يعبرها القطار. الجبل كله يصلصل داخل القطار. تشعر بأزيز في أذنيك وبضغط في رأسك. ظلمة حالكة تارة ونور ساطع كالبرق تارة أخرى، وبصورة متناوبة مستمرة. إنه شيء لا يحتمل. الجميع يجلسون ولا ينظرون حتى من النافذة. يقرؤون كتباً عندما يسطع النور. ينتبهون كيلا تسقط الكتب من على ركبهم. كان لا بد أن أنتبه كيلا ألامسهم بكوعَي. إنهم يتركون الكتب مفتوحة عندما ندخل الظلام.

أنصتُ. أنصت في الأنفاق لأسمع ما إذا كانوا يغلقون الكتب. لم أسمع شيئاً. وعندما كان النور يسطع مجدداً كنت أنظر أولاً إلى الكتب ثم إلى أعينهم. الكتب كانت مفتوحة وعيونهم مغمضة. وكانوا يفتحون عيونهم بعدي. في كل مرة، يا ڤينديش، كنت أشعر بالفخر لأني فتحت عيني قبلهم. «لدي إحساس خاص بنهاية النفق، منذ أيامي في روسيا»، قال الفراء وأمسك جبهته بيده. وتابع: «لم يسبق لي أن خضت مثل هذا العدد من الليالي المصلصلة والنهارات الساطعة كالبرق. في السرير، في الليل، كنت أسمع الأنفاق. كانت تهدر. تهدر مثل العربات القلابة في الأورال».

أرجح الفرّاء رأسه متفكراً، وأشرق وجهه. نظر من فوق كتفه إلى الطاولة. نظر ليتأكد من أن زوجته لا تنصت، ثم همس: «لكن النساء، أقول لك ڤينديش، النساء هناك رائعات. لهن مشية! إنهن يحصدن أسرع من الرجال». ضحك الفراء وأردف: «لكنهن للأسف رومانيات. جيدات في السرير، لكنهن لا يجدن الطبخ مثل نسائنا».

هناك على الطاولة صحن معدني، خفقت فيه زوجة الفراء بياض البيض فصار أبيض كالثلج. «غسلت قميصين، فصار الماء أسود. الوسخ هناك كثير، لكن الإنسان لا يراه بسبب الغابات»، قالت زوجة الفرّاء.

نظر الفرّاء إلى الصحن المعدني وقال: «على قمة أعلى الجبال هناك يوجد مصح للمجانين. يتجولون فيه بسراويل داخلية زرقاء ومعاطف سميكة وراء سور يحيط بالمكان. أحدهم يحث في الحشيش طوال اليوم عن أكواز الصنوبر، وهو يكلم نفسه. يقول رودي إنه عامل مناجم أضرب عن العمل».

تغمس زوجة الفرّاء إصبعها في الثلج. «وهذه هي النتيجة»، تقول وهي تلحس رأس اصبعها.

«ونزيل آخر»، قال الفرّاء «بقي في المصح أسبوعاً واحداً فقط، ثم عاد إلى المنجم. دهسته سيارة».

رفعت زوجة الفرّاء الصحن وقالت: «البيض ليس طازجاً. الثلج طعمه مر».

هز الفرّاء برأسه وقال: «من الأعلى ترى المقابر معلقة على الجبال ومائلة نحو الأسفل».

وضع ڤينديش يديه على الطاولة إلى جانب الصحن وقال: «لا رغبة لي في أن أدفن هناك».

نظرت زوجة الفراء شاردة إلى يدي ڤينديش: «نعم، لا شك في أنه مكان جميل، هناك في الجبال، لكنه بعيد جداً من هنا. لا يسعنا الذهاب إلى هناك، ورودي لا يأتي إلى البيت».

«إنها ستصنع الحلوى ثانية، وورودي لن يأكل شيئاً منها»، قال الفراء.

سحب ڤينديش يديه عن الطاولة.

«ترى الغيوم معلقة فوق المدينة في الأسفل»، قال الفراء «الناس يتحركون بين الغيوم. هناك عاصفة رعدية كل يوم. وعندما يكونون في الحقول تضربهم الصواعق».

وضع ڤينديش يديه في جيبي بنطاله. وقف. ثمَّ مشى نحو الباب.

«أحضرت معي شيئاً»، قال الفراء، «أعطاني رودي علبة لأمالي». فتح الفراء درْجاً ثم أغلقه. نظر في حقيبة فارغة. فتشت زوجة الفراء في جيوب سترته. فتح الفراء الخزانة.

رفعت زوجة الفراء يديها منهكة وقالت: «سنبحث عنها» فتش الفراء في جيوب بنطاله وقال: «صباح اليوم كانت العلبة في يدي».

المطواة

يجلس ڤينديش عند النافذة في المطبخ. يحلق ذقنه. يطلي الرغوة البيضاء على وجهه بالفرشاة. لتجفَّ وتتشقق على خديه. يوزع الثلج حول فمه برؤوس أصابعه. ينظر في المرآة. يرى فيها باب المطبخ ووجهه.

يلاحظ ڤينديش أنه قد أكثر من الثلج على وجهه ويلاحظ موضع فمه في الثلج. يشعر بأنه غير قادر على الكلام عبر الثلج الذي يملأ منخريه ويغطي ذقنه.

يفتح ڤينديش المطواة. يختبر حد النصل على جلد إصبعه. يضع النصل تحت عينه. عظم الوجنة لا يتحرك. ويشدُّ باليد الأخرى التجاعيد تحت عينه. ينظر من النافذة. يرى العشب الأخضر.

المطواة ترتجف. النصل يحرق.

منذ أسابيع طويلة هناك جرح تحت عينه. الجرح أحمر ومحاط بحافة طرية متقيحة. يتجمع فيه كل مساء كثير من غبار الطحين.

منذ بضعة أيام تتشكل قشرة تحت عين ڤينديش.

صباحاً يغادر ڤينديش الدار مع القشرة. عندما يرفع مغلاق باب الطاحون، عندما يضع القفل في جيب سترته،

يحك ڤينديش خده. يلاحظ أن القشرة قد اختفت.

«ربما بقيت القشرة في الموضع المنخفض»، يفكر ڤينديش.

عندما ينتشر نور النهار في الخارج يذهب ڤينديش إلى بركة الطاحون. يركع على ركبته في العشب. ينظر إلى وجهه في صفحة الماء. تصطدم بأذنه دوائر صغيرة. شعره يجعل الصورة تهتز.

تحت عين ڤينديش هناك ندبة بيضاء معوجة.

انثنت ورقة قصب. أخذت تنفتح وتنغلق إلى جانب يده. لورقة القصب نصل بني.

خرجت أمالي من حوش الفراء. مشت عبر العشب. كانت تحمل علبة في يدها. وتتشممها. رأى ڤينديش حافة ثوب أمالي التي كانت تترك ظلاً على العشب. ساقاها بيضاوان. رأى ڤينديش كيف كانت أمالي تؤرجح ردفيها.

كانت العلبة مربوطة بخيط فضي. وقفت أمالي أمام المرآة. ونظرت إلى نفسها. بحثت عن الخيط الفضي وأخذت تشده. قالت: «كانت العلبة في قبعة الفراء».

في العلبة خشخش ورق حرير أبيض. كان على الورق الأبيض دمعة من زجاج. في رأس الدمعة هناك ثقب. وفي بطنها هناك مجرى. تحت الدمعة كانت هناك ورقة كتب عليها رودي: «الدمعة فارغة. املئيها بالماء. يفضل بماء المطر».

لم تستطع أمالي أن تملأ الدمعة. كان الوقت صيفاً وقد أصيبت القرية بالجفاف. وماء البئر ليس ماء مطر.

أمسكت أمالي الدمعة باتجاه النور القادم من النافذة. كانت جامدة من الخارج أما من الداخل، وعلى طول المجرى فقد كانت ترتجف.

أحرقت السماء نفسها طوال سبعة أيام حتى فرغت.

نظرت إلى السماء إلى الوادي والنهر. شربت السماء ماء. فهطل المطر مجدداً.

سال الماء في الحوش على البلاط. وقفت أمالي حاملة الدمعة تحت مزراب السطح. راقبت سيلان الماء إلى بطن الدمعة.

حمل ماء المطر معه ريحاً أيضاً. حركت أجراساً زجاجية عبر الأشجار. كانت الأجراس عكرة، دوَّمت أوراق الشجر في داخلها. غنى المطر. هناك رمل في صوت المطر. وكان فيه لحاء أشجار أيضاً.

امتلأت الدمعة. نقلتها أمالي إلى الغرفة بيدين مبتلتين وقدمين حافيتين ملوثتين بالرمل.

أخذت زوجة ڤينديش الدمعة بيدها. أضاء الماء الذي بداخلها. هناك نور في الزجاج. سال ماء الدمعة بين أصابع زوجة ڤينديش.

مد ڤينديش يده. أخذ الدمعة. تدفق الماء حتى سال من كوعه. لحست زوجة ڤينديش برأس لسانها أصابعها المبتلة. نظر ڤينديش إليها وهي تلحس إصبعها. نظر إلى المطر في الخارج. أحس باللزوجة في فمه. شعر بضغط في حلقه، أحس بالإقياء.

وضع ڤينديش الدمعة في يد أمالي. قطرت الدمعة. الماء

فيها لم ينقص. «الماء مالح. يحرق الشفتين»، قالت زوجة ڤينديش.

لحست أمالي معصمها: «ماء المطر عذب. الملح يأتي من بكاء الدمعة»، قالت أمالي.

«حتى المدارس لا تنفع شيئاً»، قالت زوجة ڤينديش. نظر ڤينديش إلى أمالي وقال: «رودي مهندس، ولكن حتى المدارس لا تنفع شيئاً في هذا الموضوع». ضحكت أمالي. «رودي يعرف المصح، ليس من الخارج فقط. كان نزيلاً هناك»، قالت زوجة ڤينديش وأردفت: «عرفت ذلك من ساعية البريد».

أخذ ڤينديش يحرك كأساً على الطاولة جيئة وذهاباً. نظر إلى الكأس وقال: «هذا متأصل في العائلة. عندها سيولد الأطفال ليصبحوا أيضاً مجانين».

الجدة الأولى لرودي كانت تلقب في القرية باليُسروع. كانت تترك ضفيرتها الهزيلة مسدلة دائماً على ظهرها. لم تكن تتحمل المشط. زوجها توفي شاباً، ولم يكن مريضاً.

بعد الدفن خرجت اليسروع لتبحث عن زوجها. دخلت إلى الحانة. نظرت إلى وجوه كلّ الموجودين. تنقلت من طاولة إلى أخرى وهي تقول: «أنت لست هو». ذهب إليها صاحب الحانة وقال: «لكن زوجك مات». أمسكت ضفيرتها الهزيلة بيدها، بكت وركضت إلى الطريق.

كانت اليسروع تخرج كل يوم باحثة عن زوجها. تدخل البيوت وتسأل عما إذا كان هناك.

ذات يوم شتوي ضبابي غطى فيه الصقيع القرية. خرجت اليسروع إلى الحقل. ترتدي ثوباً صيفياً وكانت بلا جوارب. لكن يديها كانتا مغطاتين بقفازين سميكين من الصوف. مشت بين أدغال عارية. كان الوقت بعد العصر. رآها حارس الغابة، فأرسلها إلى القرية.

في اليوم التالي جاء حارس الغابة إلى القرية. كان قد وجد اليسروع بين أغصان شجيرة برقوق. كانت متجمدة. حملها على كتفه إلى القرية. كانت يابسة كلوح خشب.

«إلى هذا الحد بلغ تهورها. تركت طفلها ابن الثلاث سنوات وحيداً من دون سند»، قالت زوجة ڤينديش.

ابن الثلاث سنوات كان جد رودي. كان نجاراً. لم يكن في ذهنه أي شيء فيما يخص أرضه، «إلى أن نبتت الأشواك في الأرض الطيبة»، قال ڤينديش.

لم يكن في ذهن جد رودي سوى الخشب. اشترى خشباً بكل ما يملك. «حوَّل الخشب إلى تماثيل. أخذ ينحت وجوهاً في الخشب، وكانت بشعة مشوهة»، قالت زوجة ڤينديش.

«ثم جاءت إجراءات التأميم»، قال ڤينديش. كانت أمالي

تطلي أظافر يديها بالأحمر. تابع ڤينديش: «ارتعد الفلاحون جميعهم. جاء رجال من المدينة. قاموا بمسح للحقول. سجلوا أسماء الناس وقالوا: «كل مَن لا يوقع سيدخل السجن». أوصدت بوابات جميع الحارات. الفرّاء العجوز لم يوصد بوابة حارته. تركها مفتوحة. وعندما جاءه الرجال، قال لهم: «حسن أنكم ستأخذونها. خذوا الخيول أيضاً، فأخلص منها».

انتزعت زوجة ڤينديش زجاجة طلاء الأظافر من يد أمالي، ثم قالت: «لم يقل هذا غيره». ومن شدة غضبها صاحت: «أتسمعين ما نقول!!» فظهرت عروق زرقاء صغيرة وراء أذنيها.

قطع الفراء العجوز شجرة الزيزفون في بستانه ونحت منها امرأة عارية. نصبها في الحوش أمام نافذة الغرفة. بكت زوجته. أخذت الطفل، ووضعته في سلة مهده. «انتقلت مع الطفل وبعض الأغراض التي قدرت على حملها إلى دار فارغة عند طرف القرية»، قال ڤينديش.

«من كثرة الخشب تولد في رأس الطفل ثقب بعيد الغور»، قالت زوجة ڤينديش.

الطفل هو الفرّاء. عندما بدأ يمشي، صار يذهب يومياً إلى الحقل. أخذ يصيد السحالي والضفادع الضخمة.

عندما صار صبياً أخذ يتسلل ليلاً إلى برج الكنيسة، يأخذ فراخ البوم من الأعشاش. يحملها تحت قميصه إلى الدار. يطعم السحالي والضفادع للبوم. وعندما تنمو كان يقتلها. يفرغها من أحشائها، يغمرها في حليب الكلس، يجففها ويحشوها.

«قبل الحرب»، قال ڤينديش «فاز الفرّاء في لعبة البولينغ بكبش احتفالات الكنيسة. سلخ جلده حياً في منتصف القرية. هرول الناس هاربين وتقيأت النساء».

«في البقعة التي نزف فيها الكبش»، قالت زوجة ڤينديش «ما زال العشب لا ينبت حتى اليوم».

استند ڤينديش إلى الخزانة، قال وهو يتنهد: «لم يكن بطلاً طوال حياته. كان رجلاً مؤذياً فحسب في الحرب لم يقاتل الرجال السحالي والضفادع».

مشطت أمالي شعرها أمام المرآة.

«لم يكن في صفوف المخابرات العسكرية قط، بل مجرد جندي في الجيش»، قالت زوجة ڤينديش «عاد بعد الحرب إلى صيد البوم واللقالق والشحارير وتحنيطها. وأخذ يذبح كل الأغنام والأرانب المريضة في منطقتنا، ويدبغ جلودها. سقيفة داره معرض للحيوانات الميتة».

مدت أمالي يدها وأخذت زجاجة الطلاء الصغيرة. أحس

ڤينديش بحبة الرمل تحت جبهته. كانت تتحرك من صدغ لآخر. سقطت قطرة حمراء على غطاء الطاولة.

«في روسيا كنتِ عاهرة». قالت أمالي لأمها وهي تنظر إلى طلاء الأظافر.

حجر في الكلس

طارت البومة محوّمة حول شجرة التفاح. نظر ڤينديش إلى القمر. إلى حيث تنسحب البقع السوداء. البومة لا تنهي تحويمها.

آخر بومة من برج الكنيسة حشاها الفرّاء قبل سنتين وأهداها للخوري.

«هذه البومة تعشش في قرية أخرى»، يفكر ڤينديش.

دائماً تُمضي البومة الغريبة الليل هنا في القرية. لا أحد يدري أين تريح جناحيها أثناء النهار. لا أحد يدري أين تطبق منقارها وتنام.

يعرف ڤينديش أن البومة الغريبة تشم رائحة الطيور المحشوة في سقيفة الفراء.

أهدى الفرّاء حيواناته المحنطة إلى المتحف في المدينة. لم يحصل على مال لقاء ذلك. حضر رجلان من المتحف. بقيت السيارة واقفة طوال النهار أمام بيت الفراء. كان لونها أبيض، وكانت مقفلة مثل غرفة.

قال الرجلان: «الحيوانات المحنطة تُعد جزءاً لا يتجزأ من مخزون الحيوانات البرية في غاباتنا». جمعوا جميع الطيور في علب. هددوه بعقوبة كبيرة. أهداهم الفراء جميع جلود

الأغنام التي لديه. عندها قالوا «إن الأمور كلها تمام».

تحركت السيارة البيضاء، التي تشبه غرفة مقفلة، ببطء مغادرة القرية. من شدة خوفها ابتسمت زوجة الفراء ولوحت بيدها.

ڤينديش يجلس في الشرفة ويفكر: «الفرّاء قدم الأوراق بعدنا. المال دفعه في المدينة».

يسمع ڤينديش صوت سقوط ورقة شجر على بلاط الممر، كمن يحك حجراً. الجدار طويل وأبيض. يغمض ڤينديش عينيه. يحس بأن الجدار ينمو على وجهه. يشعر بالكلس يحرقه في جبهته. ثمة حجر في الكلس يفغر شدقيه. شجرة التفاح ترتعد. أوراقها آذان. تتنصت. تروي تفاحاتها الخضراء.

شجرة التفاح

قبل الحرب كانت هناك شجرة تفاح خلف الكنيسة. كانت تلتهم تفاحها بنفسها.

كان والد الحارس الليلي حارساً ليلياً أيضاً. ذات ليلة صيفية كان يقف وراء سور أشجار الزان، فرأى شجرة التفاح تفتح شدقين أعلى جذعها عند تفرع أغصانها وتلتهم تفاحاً.

لم يخلد الحارس الليلي إلى النوم صباحاً. توجه إلى قاضي القرية. وأخبره أن شجرة التفاح خلف الكنيسة تلتهم تفاحاتها بنفسها. ضحك قاضي القرية، واهتزت رموش عينيه أثناء الضحك. من خلال الضحك سمع الحارس الليلي الخوف. أخذت مطارق الحياة الصغيرة تدق في صدغي قاضي القرية.

عاد الحارس الليلي إلى داره وأوى إلى سريره بثيابه. نام. نام وهو غارق في عرقه.

أثناء نومه حكّت شجرة التفاح صدغي قاضي القرية حتى تجرحا. احمرت عيناه وجف فمه.

بعد الغداء ضرب قاضي القرية زوجته، إذ رأى تفاحات تسبح في حسائه وابتلعها.

لم يستطع قاضي القرية أن ينام بعد تناوله الطعام. أغمض عينيه وأخذ يسمع قشور أشجار من وراء الجدار.

دعا قاضي القرية إلى عقد اجتماع مساءً، فتجمع الناس. شكل قاضي القرية لجنة لحراسة شجرة التفاح ومراقبتها. تألفت اللجنة من أربعة من كبار الفلاحين والخوري ومعلم مدرسة القرية والقاضي نفسه.

ألقى المعلم كلمة. أطلق فيها على اللجنة اسم (لجنة ليلة صيف). رفض الخوري مراقبة شجرة التفاح المنتصبة وراء الكنيسة. صلَّب ثلاث مرات واعتذر عن المهمة بقوله: «ربي اغفر لعبدك الخاطئ». هدد بالسفر صباح اليوم التالي إلى المدينة ليعلم الأسقف بهذا الكفر.

في ذلك المساء تأخر حلول الظلام، فمن شدة حرارتها لم تعثر الشمس على نهاية النهار. نبع الليل من التراب وغطى القرية.

تسللت لجنة ليلة الصيف في الظلمة على طول سور شجر الزان وقبعت تحت شجرة التفاح، وأخذت تنظر إلى متاهة الأغصان.

كان قاضي القرية يحمل بلطة. وضع كبار الفلاحين مجاريف الروث على العشب. جلس المعلم تحت كيس، إلى جانب مصباح عواصف وبيده قلم رصاص ودفتر. كَاَن

يراقب عبر ثقب في الكيس بحجم الإبهام ويكتب التقرير.
كان الليل قد نما واشتد، وضغط السماء إلى خارج القرية. وكان الوقت عند منتصف الليل. حدقت لجنة منتصف الليل في السماء شبه المطرودة. تحت الكيس نظر معلم القرية إلى ساعة جيبه. تجاوز الوقت منتصف الليل. ساعة الكنيسة لم تدق.

كان الخوري قد أوقف ساعة الكنيسة، إذ لا يجوز لدواليبها المسننة أن تقيس زمن الخطيئة. وعلى الصمت أن يشكو القرية.

لم ينم أحد في القرية. وقفت الكلاب في الطرقات. لم تنبح. وتكورت القطط في الأشجار، مراقبة بعيون مضيئة كالقناديل.

جلس الناس في الغرف. وحملت الأمهات أطفالهن ومشين بهن جيئة وذهاباً بين الشموع الموقدة. لم يبك الأطفال.

تحت الجسر جلس ڤينديش مع بربارا.

كان معلم القرية قد رأى انتصاف الليل في ساعة جيبه. مد يده خارج الكيس. أعطى إشارة للجنة منتصف الليل.

لم تصدر عن شجرة التفاح أية نأمة. ومن طول الصمت تجشأ قاضي القرية. هز سعال التدخين أحد الفلاحين الكبار،

فقطف بسرعة قبضة من الحشائش. وضعها في فمه ودفن سعاله.

بعد مضي ساعتين على منتصف الليل أخذت شجرة التفاح تهتز. في الأعلى حيث تتفرع الأغصان انفتح شدقان أخذا يلتهمان التفاح.

سمعت لجنة منتصف الليل صوت الشدقين. ومن وراء الجدار، من الكنيسة، سمعت سقسقة الجداجد.

التهم الشدقان التفاحة السادسة. ركض قاضي القرية نحو الشجرة وهوى ببلطته على الشدقين. رفع الفلاحون الكبار مجاريف الروث في الهواء ووقفوا وراء قاضي القرية.

سقطت على العشب قطعة من قشرة الشجرة مع خشب أصفر مبلول.

أطبقت شجرة التفاح شدقيها.

لم ير أحد من لجنة منتصف الليل كيف انطبق الشدقان ومتى.

زحف المعلم من تحت كيسه. قال قاضي القرية إنه كان من شأن المعلم أن يرى ذلك بصفته معلماً.

في الرابعة صباحاً مشى الخوري بقفطانه الطويل الأسود، تحت قبعته الكبيرة السوداء، إلى جانب محفظة أوراقه السوداء، إلى محطة القطار. مشى بسرعة مثبتاً عينيه على حجارة

الطريق. كان الفجر قد تبدى على جدران الدور. كان كلس الجدران مضيئاً.

بعد ثلاثة أيام جاء الأسقف إلى القرية. كانت الكنيسة ممتلئة. تابع الناس مشيته عبر المقاعد حتى المذبح. اعتلى المنبر. لم يُصلِّ الأسقف. قال إنه قرأ تقرير المعلم. إنه قد استشار الرب. وصاح: «الرب كان على علم. الرب ذكرني بآدم وحواء»، ثم خفض صوته وأضاف: «الرب أخبرني أن الشيطان يسكن شجرة التفاح».

كتب الأسقف رسالة إلى الخوري. كتب الرسالة باللاتينية. قرأ الخوري الرسالة من على المنبر. وبسبب اللاتينية بدا المنبر عالياً جداً.

قال والد الحارس الليلي إنه لم يسمع صوت الخوري.

عندما انتهى الخوري من قراءة الرسالة، أغمض عينيه. فرد راحتي يديه وصلى باللاتينية. هبط من المنبر. بدا ضئيلاً. كان وجهه مرهقاً. وقف ووجهه إلى المذبح وقال: «لا يجوز أن نقطع الشجرة. علينا أن نحرقها واقفة».

كان بود الفرّاء العجوز أن يشتري الشجرة من الخوري. لكن الخوري قال: «كلمة الرب مقدسة، والأسقف أعلم بذلك».

عند المساء جلب الرجال حمولة عربة من القش. حزم

الفلاحون الكبار جذع الشجرة بالقش. وقف رئيس البلدية على السلم ونثر القش على تاج الشجرة.

كان الخوري واقفاً وراء شجرة التفاح وهو يصلي بصوت عالٍ. وقفت جوقة الكنيسة على طول سور أشجار الزان وغنت أناشيد طويلة. كان الطقس بارداً وارتفعت نفحات الأناشيد إلى عنان السماء، فيما صلى الأطفال والنساء بأصوات خافتة.

أشعل المعلم القش بسلخة خشب. التهم اللهيب القش واتسع. ابتلع اللهيب قشرة الشجرة. طقطقت النار في الخشب. لحس تاج الشجرة السماء. غطى القمر نفسه.

انتفخت التفاحات. تطايرت شظايا، فيما طش عصيرها، عوى العصير في النار كلحم حي. كانت رائحة الدخان كريهة. أحرق الدخان العيون. تمزقت الأناشيد من السعال.

بقيت القرية حتى المطر القادم مغلفة بغلالة. كتب المعلم في دفتره واصفاً هذه الغلالة بـ «ضباب التفاح».

الذراع الخشبية

لمدة طويلة من الزمن بقي وراء الكنيسة جذع عار أحدب أسود.

ردد الناس فيما بينهم القول بأن هناك رجلاً يقف وراء الكنيسة، يشبه الخوري من دون قبعة.

عند الصباح تشكل الصقيع، الذي انتثر على شجرة الزان فجعلها بيضاء. وكان الجذع العاري الأحدب أسود.

حمل الشمّاس الورود الذابلة من شواهد القبور وراء الكنيسة. ومر إلى جانب الجذع. كان الجذع ذراع زوجته الخشبية. تطايرت مجموعة أوراق أشجار متفحمة في الهواء. لم يكن هناك ريح. لم يكن للأوراق ثقل. ارتفعت حتى ركبتيه. تساقطت أمام خطواته. تناثرت الأوراق هباباً.

قطع الشمَّاس الجذع الأحدب. لم يكن للفأس صوت. صب الشماس زجاجة بنزين على الجذع وأشعله. احترق الجذع. بقي على الأرض كومة رماد.

جمع الشمّاس الرماد في علبة. مشى حتى طرف القرية. حفر بيديه حفرة في الأرض. أمام جبهته انتصب غصن معوج. كان ذراعاً خشبية، امتدت نحوه.

ردم الشماس الحفرة التي دفن العلبة فيها. دخل الحقل ماشياً عبر طرقات مغبرة. سمع أصوات الأشجار عن بعد. كانت العرانيس نحيلة. حيثما مشى تكسرت الأوراق من حوله. شعر بعزلة السنوات جميعها. كانت حياته شفافة. وفارغة.

طارت الغربان فوق حقل الذرة، وحطت على أعوادها. كانت الغربان فحمية، كانت ثقيلة. تمايلت أعواد الذرة. طارت الغربان خافقة بأجنحتها.

عندما وصل الشماس إلى القرية أحس بقلبه معلقاً بين أضلعه عارياً وجامداً. كانت علبة الرماد ملقاة إلى جانب سور أشجار الزان.

خنازير الجار المبقعة تنخر بصوت عال. تشبه قطيعاً في السحاب، يعبر الحوش. الشرفة مغطاة بشبكة من أوراق الشجر، ولكل ورقة ظل.

من الشارع الجانبي يتناهى غناء رجل. الأغنية تسبح عبر الأوراق. يفكر ڤينديش: «القرية كبيرة جداً في الليل، ونهايتها في كل مكان».

ڤينديش يعرف الأغنية: «سافرت مرة إلى برلين، لأزور المدينة الجميلة. تيريهولالا طوال الليل». عندما تكون الظلمة بهذه الدكنة تنمو الشرفة وتتوسع. عندما يكون للأوراق ظلال. تدفع الشرفة نفسها من تحت البلاط عالياً. على عامود. عندما يزداد نموها، ينكسر العامود. تسقط الشرفة على الأرض، على المكان نفسه. عندما يطلع النهار لا يلاحظ الإنسان أن الشرفة قد نمت عالياً ثم سقطت.

يحس ڤينديش بالصدمة على الحجارة. هناك طاولة فارغة أمامه. ثمة ما يرعب على الطاولة. الرعب بين أضلاع ڤينديش الذي يشعر به كحجر في جيب سترته.

تسبح الأغنية عبر شجرة التفاح: «عليك أن ترسل إلي ابنتك، لأني راغب في الزواج منها. تيريهولالا طوال الليل».

يمد ڤينديش يده الباردة داخل جيب سترته. لا يوجد حجر في الجيب. يشعر بالأغنية بين أصابعه. يشارك في الغناء بصوت خافت: «يا سيدي، هذا لا يجوز، ابنتي ليست للزواج. تيريهولالا طوال الليل».

لأن قطيع الخنازير في السحاب كبير جداً تزحف السحب فوق القرية. وتصمت الخنازير. تبقى الأغنية وحيدة في الليل: «آه يا أمي، دعيني أذهب، فما الفائدة منّي. تيريهولالا طوال الليل». الأغنية ثقيلة. الصوت عميق. هناك حجر في الأغنية. ثمة ماء بارد يسيل فوق الحجر. «لا أستطيع أن أعطيكَ إياها، فأبوها يحتاجها غداً. تيريهولالا طوال الليل».

يسحب ڤينديش يده من جيب سترته. يفقد الحجر، يفقد الأغنية.

ڤينديش يفكر: «أمالي عندما تمشي تميل بمقدمة قدميها جانباً».

الحليب

عندما كانت أمالي في السابعة من عمرها سحبها رودي عبر حقل الذرة. سحبها حتى نهاية الحقل وقال: «الذرة هي الغابة». ذهب رودي مع أمالي إلى الشونة. قال: «الشونة هي القصر».

كان في الشونة برميل نبيذ فارغ. دخل رودي وأمالي في البرميل. «البرميل هو سريرك»، قال رودي ونثر على شعرها أشواكاً جافة. «على رأسك إكليل شوك»، قال: «أنت ملعونة. أحبك. يجب أن تتألمي».

كان جيبا سترة رودي مملوءين بقطع زجاج ملون مكسور. وزع الشظايا حول حافة البرميل. تلألأت الشظايا. جلست أمالي في قعر البرميل. ركع رودي أمامها، وتبادلا الحبّ.

بكت أمالي. ذهب رودي عبر نهاية البستان إلى الحقل. ذهبت أمالي إلى الدار.

كانت الأشواك ملتصقة بشعرها، متشابكة بصورة عشوائية. قصتها زوجة ڤينديش بالمقص. وقالت «لا يجوز لك أن تلعبي معه ثانية. ابن الفراء مجنون. في رأسه ثقب عميق الغور من الطيور المحنطة والمحشوة».

أرجح ڤينديش رأسه وقال: «أمالي ستجلب لنا العار».

الشحرور الذهبي

بين قضبان إطار النافذة انتشرت شقوق رمادية. كانت حرارة أمالي مرتفعة. لم يستطع ڤينديش أن ينام. كان يفكر بالحلمتين المعضوضتين.

جلست زوجة ڤينديش على حافة السرير. قالت: «رأيت في المنام أني نزلت إلى قبو الدار. كنت أحمل بيدي منخل الطحين. على درج القبو كان هناك طائر ميت. كان شحروراً ذهبياً. رفعته من قدميه. كان تحته كتلة كثيفة من ذباب أسود. طار الذباب كسرب وحط في منخل الطحين. هززت المنخل في الهواء، لكن الذباب لم يطر مغادراً المنخل. عندها دفعت الباب بشدة وركضت إلى الحوش. رميت المنخل بالذباب في الثلج».

الساعة الجدارية

سقطت نوافذ الفرّاء في الليل. رودي مضطجع على معطفه مستغرقاً في النوم. الفرّاء وزوجته ينامان معاً على معطف آخر.

يرى ڤينديش البقعة البيضاء للساعة الجدارية على الطاولة الفارغة. في الساعة الجدارية يسكن وقْوَق، يحس بالعقارب، يصيح. أهدى الفرّاء الساعة الجدارية لشرطي القرية.

قبل أسبوعين أرى الفرّاء رسالة لڤينديش. كانت الرسالة من ميونيخ. قال الفرّاء: «زوج أختي يعيش هناك»، ووضع الرسالة على الطاولة. بحث بأصابعه عن السطور التي يريد قراءتها بصوت عال: «عليكم أن تجلبوا معكم جميع أدوات المائدة. النظارات هنا غالية جداً. معاطف الفراء فوق طاقة المرء». قلب الفرّاء صفحة أخرى من الرسالة.

يسمع ڤينديش صيحات الوقوق. يشم رائحة الطيور المحنطة عبر سقف الغرفة. الوقوق هو الطائر الحي الوحيد في الدار. يمزق بصيحته الزمن. للطيور المحنطة رائحة كريهة.

ثم ضحك الفرّاء. سحب إصبعه ووضعه تحت جملة على طرف الرسالة. قرأ: «هنا لا قيمة للنساء. إنهن لا يحسنَّ الطبخ. على زوجتي أن تذبح الدجاجات للمدام مالكة البيت

التي تأبى أن تأكل الكبد والدم. إنها ترمي المعدة والطحال في الزبالة. إضافة إلى أنها تدخن طوال اليوم وتستقبل جميع الرجال».

«أسوأ شڤابية[2] هنا لها قيمة أفضل من أي ألمانية هناك».

(2) – شفابية = ألما نية – رومانية.

توقفت البومة عن النعيب. حطت فوق أحد السطوح.

«لا بد أن العجوز كرونر قد ماتت»، يفكر ڤينديش.

في الصيف الماضي قطفت العجوز كرونر أزهار الزيزفون من شجرة مصلِّح البراميل. تقف الشجرة على الجانب الأيسر من المقبرة. هناك ينمو العشب. بين العشب ينبت نرجس بري. هناك بركة في منطقة العشب، توزعت حولها قبور الرومانيين، وهي مسطحة، الماء يجذبها نحو الأسفل.

لزيزفونة مصلح البراميل رائحة طيبة. يقول الخوري إن قبور الرومانيين لا تنتمي إلى المقبرة وإن لقبورهم رائحة غير رائحة قبور الألمان.

كان مصلح البراميل يتنقل من دار إلى دار، حاملاً معه كيساً فيه كثير من المطارق الصغيرة. يطرق بها الأطواق المعدنية على خشب البراميل، فيقدمون له الطعام لقاء عمله، ويسمحون له بالنوم في الشونة.

كان الوقت خريفاً. يرى المرء برد الشتاء من خلال الغيوم. ذات صباح لم يستيقظ مصلح البراميل. لا يعرف أحد من كان ولا من أين أتى. قال الناس: «هذا النوع دائم التنقل».

تتدلى أغصان شجرة الزيزفون فوق القبر. «لا يحتاج المرء إلى سلم»، قالت العجوز كرونر، «كيلا يصاب بالدوخة». كانت تجلس على العشب وتقطف الزهور وتضعها في سلة.

طوال شتاء كامل شربت العجوز كرونر منقوع أزهار الزيزفون. كانت تجرع الفنجان وراء الآخر حتى أدمنت على هذا المنقوع. كان الموت كامناً في الفناجين.

كان وجه العجوز كرونر مشرقاً. قال الناس: «ثمة ما يزهر في وجه العجوز كرونر». كان وجهها شاباً. الشباب كان ضعفاً. كان وجهها كمن يستعيد شيئاً من شبابه قبيل الموت. كمن يزداد شباباً باستمرار حتى ينهار الجسد. حتى ما وراء الولادة.

كانت العجوز كرونر تغني الأغنية نفسها دائماً: «قبل البوابة عند البئر تقف شجرة زيزفون».وتضيف إليها أبياتاً جديدة. كانت تغني شاي زهر الزيزفون.

عندما كانت العجوز كرونر تشرب الشاب من دون سكر تأتي الأبيات حزينة. كانت تنظر إلى نفسها في المرآة أثناء الغناء. ترى الزيزفون في وجهها. تحس بالجروح في بطنها وعلى ساقيها.

قطفت العجوز كرونر من الحقل عشبة الذئب وغلتها. فركت الجروح بالعصير البني. أخذت الجروح تكبر بازدياد،

وازدادت رائحتها طيباً.

قطفت العجوز كرونر من الحقل عشبة الذئب كلها.

صارت تكثر من غلي عشبة الذئب وشاي الزيزفون.

أزرار أكمام القميص

كان رودي الألماني الوحيد في معمل الزجاج. «إنه الألماني الوحيد في الجوار كله»، قال الفرّاء. «في البداية تعجب الرومانيون من أنه ما زال هناك ألمان بعد هتلر. (ما زال هناك ألمان) قالت سكرتيرة المدير، (ما زال هناك ألمان. وحتى في رومانيا)».

«لهذا ميزاته»، علق الفراء. «رودي يكسب مالاً كثيراً في المعمل. علاقاته جيدة مع رجل المخابرات، وهو طويل وأشقر وله عينان زرقاوان. يبدو كأنه ألماني. يقول عنه رودي إنه مثقف جداً. يعرف جميع أنواع الزجاج. أهداه رودي مشبك كراقته وزرين لأكمام القميص من الزجاج، وكان المردود جيداً»، قال الفراء «لقد ساعدنا كثيراً بموضوع الجواز».

أهداه رودي كل ما في بيته من زجاجيات. مزهريات زجاجية، أمشاط، كرسي هزاز من زجاج أزرق، فناجين وصحون زجاجية. لوحات زجاجية. قاعدة مصباح زجاجية مع مظلة حمراء. أحضر رودي في حقيبةٍ إلى الدار آذاناً وشفاهاً وأعين وأصابع يد وأصابع قدم من زجاج. وزعها على الأرض في صفوف ودوائر. أخذ يتأملها.

القاز الأرضي

تعمل أمالي في روضة أطفال في المدينة. تأتي إلى الدار كل يوم سبت. تنتظرها زوجة ڤينديش في المحطة. تساعدها في حمل الحقائب الثقيلة. كل سبت تحضر أمالي حقيبة مليئة بالمواد الغذائية وحقيبة مليئة بالزجاج. تقول إنه «زجاج كريستال».

باتت الخزائن متخمة بزجاج الكريستال المرتب حسب اللون والحجم. أقداح نبيذ حمراء، أقداح نبيذ زرقاء، أقداح شناپس(3) بيضاء. على الطاولات هناك صحائف فواكه من زجاج ومزهريات وسلال ورود.

عندما يسألها ڤينديش: «من أين لك هذا الزجاج؟» تقول أمالي: «هدايا من الأطفال».

تحكي أمالي منذ شهر عن ڤاز أرضي من الكريستال، وتشير إلى أنه يصل إلى ارتفاع خصرها، قائلة: «إلى هذا الارتفاع يصل. لونه أحمر داكن. عليه رسم لراقصة بثوب أبيض مزين بالمخرمات».

كلما سمعت زوجة ڤينديش عن القاز الأرضي تتسع عيناها، وكل سبت تقول: «لن يستوعب أبوك أبداً قيمة ڤاز أرضي».

(3) شنابس: مشروب كحولي ثقيل يشربه الألمان.

«قديماً كانت المزهريات جيدة. الآن بات الناس يحتاجون ڤازات أرضية»، يقول ڤينديش.

في أثناء وجود أمالي في المدينة تحكي زوجة ڤينديش عن الڤاز الأرضي. يبتسم وجهها وتصبح يداها ناعمتين. ترفع أصابعها ناعمةً في الهواء وكأنها ستلمس خداً.

عندما تحكي عن الڤاز الأرضي يصبح ڤينديش قاسياً. يفكر بفترة ما بعد الحرب. فبعد الحرب قال الناس إنها: «باعت نفسها في روسيا لقاء قطعة خبز».

آنذاك فكر ڤينديش: «إنها جميلة، والجوع مؤلم».

بين القبور

كان ڤينديش قد عاد من الأسر بعد الحرب. كانت القرية جريحة لكثرة الموتى والمفقودين.

بربارا، زوجته، ماتت في روسيا.

كانت كتارينا قد عادت من روسيا. أرادت الزواج بجوزيف، لكنه كان قد مات في الحرب. كان وجه كتارينا شاحباً وكانت عيناها غائرتين.

كتارينا رأت الموت، مثل ڤينديش. كتارينا مثل ڤينديش جلبت معها حياتها. وسرعان ما ربط ڤينديش حياته بها.

في أول سبت في القرية الجريحة قبّلها ڤينديش. ضغطها إلى جذع شجرة. أحس ببطنها الفتي وبنهديها المكورين. تمشى معها ڤينديش على طول البساتين.

كانت شواهد القبور مرصوفة في صفوف بيضاء، والبوابة الحديدية تصدر صريراً. صلّبت كتارينا. بكت. عرف ڤينديش أنها تبكي جوزيف. أغلق ڤينديش البوابة. بكى. عرفت كتارينا أنه يبكي بربارا.

جلست كتارينا على العشب وراء الكنيسة الصغيرة. انحنى ڤينديش فوقها. أمسكت بشعره. ابتسمت. رفع ثوبها عالياً. فك أزرار بنطاله. استلقى فوقها. تشبثت بأصابعها

في العشب. لهثت. رفع ڤينديش نظره من فوق شعرها. توهجت شواهد القبور. ارتعشت كتارينا.

نهضت. مسدت ثوبها فوق ركبتيها. وقف ڤينديش أمامها وزرر بنطاله. كانت المقبرة كبيرة. عرف ڤينديش أنه لم يمت. أنه في دياره. أن هذا البنطال كان بانتظاره في الخزانة، هنا في القرية. أنه في الحرب وفي الأسر لم يكن يعرف موقع القرية وإلى متى ستبقى.

كانت كتارينا تضع في فمها عود حشيش. جذبها ڤينديش من يدها. «تعالي نخرج من هنا»، قال.

الديوك

أجراس ساعة الكنيسة تدق خمس مرات. يحس ڤينديش بعقدٍ باردة في ساقيه. يدخل إلى الحوش. من فوق السور تمر قبعة الحارس الليلي.

يذهب ڤينديش نحو البوابة. الحارس الليلي يتمسك بعمود التلغراف. يتكلم مع نفسه. «ولكن أين هي، أين بقيت، أجمل الورود قاطبة؟»، يقعي الكلب على حجارة الطريق ويلتهم دودة.

يقول ڤينديش: «كونراد». ينظر الحارس الليلي إليه. «البومة تجلس وراء كومة الحشيش اليابس في المرعى. ماتت العجوز كرونر». يتثاءب كونراد. تنبعث من فمه رائحة الشنابس.

في القرية تصيح الديكة بصوت خشن. الليل يعشش في مناقيرها.

يتمسك الحارس الليلي بالعمود. يداه قذرتان. أصابعه معوجة.

بقعة الموت

تقف زوجة ڤينديش حافية على الحجارة المرصوفة في الممر بشعرها المنكوش وكأن ريحاً قد عبرت الدار. يرى ڤينديش آثار القشعريرة على بطتي ساقيها والجلد الخشن عند كعبيها.

يشم ڤينديش قميص نومها. إنه دافئ. عظما خديها قاسيان. يرتجفان. ينفتح شدقاها وهي تصيح: «الآن تعود إلى الدار. عند الثالثة» نظرت إلى الساعة. «الآن دقت الخامسة». يداها ترفرفان في الهواء. ينظر ڤينديش إلى إصبعها. ليس لزجاً.

يكوّر ڤينديش في يده ورقة تفاح ذابلة. يسمع زوجته تزعق في الردهة. تخبط الأبواب. تدخل المطبخ زاعقة. الملعقة تقرقع على الموقد.

يقف ڤينديش في باب المطبخ. ترفع الملعقة. «يا زير النساء»، تصيح «سأخبر ابنتك بفسقك».

ثمة فقاعة خضراء على إبريق الشاي. وجهها فوق الفقاعة. يمشي ڤينديش نحوها ويصفعها على وجهها. تصمت. تنكس رأسها. تضع ابريق الشاي على الطاولة وهي تنشج.

يجلس ڤينديش أمام فنجان الشاي. البخار يلتهم وجهه. بخار شاي النعناع يملأ المطبخ. يرى ڤينديش عينه في الشاي. ينساب السكر من الملعقة إلى عينه. تقف الملعقة في الشاي.

يشرب ڤينديش جرعة شاي. يقول: «العجوز كرونر ماتت». تنفخ زوجته في الشاي. عيناها حمراوان صغيرتان. تقول: «منبه الساعة يرن».

على خدها بقعة حمراء. إنها بقعة يد ڤينديش. إنها بقعة بخار الشاي. إنها بقعة موت العجوز كرونر.

المنبه يرن عبر الجدران. اللمبة ترن. السقف يرن.

يأخذ ڤينديش شهيقاً عميقاً. يجد شهيقه في قعر الفنجان.

«من يدري، متى وأين سنموت»، تقول زوجة ڤينديش. تدخل أصابعها في شعرها. ترفع خصلة إلى الأعلى. تسيل قطرة شاي على ذقنها.

ينبلج في الطريق نور رمادي. نوافذ الفرَّاء مضاءة. يقول ڤينديش: «الدفن اليوم بعد الظهر».

يركب ڤينديش الدراجة إلى الطاحون. تصيء العجلات على العشب المبتل. يراقب ڤينديش دوران العجلة بين ركبتيه. تنسرب أسوار الدور عبر المطر. البساتين تصدر حفيفاً والأشجار تقطر.

نصب المقاتل مغلف بلون رمادي. للورود الصغيرة حواف بنية.

الموضع المنخفض مملوء بالماء. يغرق إطار الدراجة. يتناثر الماء على ساقي بنطال ڤينديش. هناك دود مطر يتكور على حجارة رصف الطريق.

نافذة النجار مشرعة على آخرها. السرير مغطى بقماش من قطيفة حمراء. تجلس زوجة النجار إلى الطاولة وحدها. على الطاولة كومة من البازلاء الخضراء.

لم يعد غطاء تابوت العجوز كرونر مسنوداً إلى الجدار. تبتسم أم النجار من الصورة فوق السرير. تبتسم من موت الأضاليا البيضاء إلى موت العجوز كرونر.

الأرضية عارية. باع النجار السجادات الحمراء. لديه الاستمارات الكبيرة أيضاً. إنه بانتظار الجواز.

يهطل المطر على رقبة ڤينديش. كتفاه مبلولتان.

ذات يوم سيستدعي الخوري زوجة النجار من أجل وثيقة العماد، وسيستدعيها الشرطي من أجل الجواز.

حكى الحارس الليلي لڤينديش أن للخوري سريراً معدنياً في غرفة المقدسات (الموهِف) داخل الكنيسة. وهو يبحث مع النساء في هذا السرير عن وثائق العماد. «إن سارت الأمور على نحو جيد فإنه يبحث عن الوثائق خمس مرات. وإن أراد أن ينجز عمله بصورة دقيقة فإنه يبحث عشر مرات. في حال كثير من العائلات يضيِّع الشرطي الطلبات والطوابع حتى سبع مرات. فيبحث عنها مع النساء اللواتي يطلبن الهجرة، على الفراش في مستودع مكتب البريد»، قال الحارس الليلي.

ثم ضحك الحارس الليلي وأضاف: «زوجتك كبيرة بالنسبة إليه. سيترك كتارينا لحالها. لكن ابنتك سيأتي دورها. الخوري سيجعلها كاثوليكية والشرطي سيجعلها بلا جنسية. عندما يكون لدى الشرطي عمل في المستودع تعطيه ساعية البريد المفتاح».

دفع ڤينديش باب الطاحون بحذائه وهو يقول: «فليحاول. إنه يحصل مني على الطحين، أما ابنتي فلن يحصل عليها».

«لهذا السبب لا تصل رسائلنا»، تابع الحارس الليلي

«ساعية البريد تأخذ منا المغلفات والمال ثمن الطوابع البريدية. بثمن الطوابع تشتري كحولاً. والرسائل تقرؤها وترميها في سلة المهملات. وعندما لا يكون لدى الشرطي عمل في المستودع، فإنه يجلس إلى جانب ساعية البريد وراء كوتها ويكرع الكحول فساعية البريد من حيث سنها أكبر بكثير من أن تشاركه الفراش».

ربت الحارس الليلي على كلبه وأردف: «لقد شربت ساعية البريد حتى الآن مئات الرسائل، وحكت للشرطي مضمون مئات الرسائل أيضاً».

يفتح ڤينديش باب الطاحون بالمفتاح الكبير. يحسب سنتين. يدير المفتاح الصغير في القفل. يحسب ڤينديش الأيام. يذهب ڤينديش إلى بركة الطاحون. البركة هائجة وتحرك أمواجاً. أشجار الصفصاف ملتفة بأوراقها وبالريح. ما زالت حزمة الحشيش ترمي صورتها الثابتة والمتحركة في البركة. هناك ضفادع تزحف حول حزمة الحشيش جارَّة معها بطونها البيضاء عبر العشب.

يجلس الحارس الليلي على البركة وهو يُفوِّق فتقفز صلعته من ياقته ويقول «هذا بسبب البصل الأزرق»، ويضيف: «الروس يقطعون أعلى البصلة إلى شرائح رقيقة. يرشون الملح عليها. بسبب الملح تفتح البصلة نفسها مثل الوردة،

ويسيل منها ماء صاف نقي. تبدو مثل ورود البحيرات. الروس يضربون البصلة بقبضتهم. رأيت روساً يقفون على البصلة بعقب حذائهم، ويديرون العقب. كانت الروسيات ترفعن تنانيرهن وتركعن فوق البصل وتُدرن ركبهن. نحن الجنود كنا نمسك الروسيات من أردافهن ونساعدهن على الدوران».

الدموع تسيل من عيني الحارس الليلي. «أكلت بصلاً كان طرياً وحلواً كالزبدة من ركب الروسيات»، قال. وجنتاه ذابلتان وعيناه تستعيدان شبابهما كلمعان البصل.

يحمل ڤينديش كيسين إلى ضفة البركة يغطيهما بشادر. سينقلهما الحارس ليلاً إلى الشرطي.

يتمايل القصب. هناك رغوة بيضاء على العيدان. «هكذا يجب أن يبدو ثوب الراقصة ذو المخرمات»، يفكر ڤينديش. «لن يدخل داري أي ڤاز أرضي».

«النساء في كل مكان، حتى في البركة هناك نساء»، يقول الحارس الليلي. يرى ڤينديش ثيابهن على القصب. يدخل إلى الطاحون.

الذبابة

تتمدد العجوز كرونر في التابوت بثياب سوداء. يداها مربوطتان بخيوط بيضاء معاً، كيلا تسقطا عن بطنها على الجانبين. كي تصليا عندما تصلان إلى بوابة السماء.

«ما أجملها، كأنها نائمة»، قالت الجارة، ڤيلما النحيلة. تحط على يدها ذبابة. تحرك ڤيلما النحيلة أصابعها.

تنفض زوجة ڤينديش قطرات المطر عن غطاء رأسها. تتساقط خيوط شفافة على حذائها. هناك مظلات مركونة إلى جانب النساء المصليات. تحت الكراسي تسيل أشرطة ماء بأشكال عشوائية، بخطوط معوجة، وتتلألأ بين الكراسي.

تجلس زوجة ڤينديش على الكرسي الشاغر إلى جانب الباب. تبكي من كل عين دمعة كبيرة. تحط الذبابة على خدها. تسقط الدمعة على الذبابة. تطير الذبابة بأجنحة مبلولة عبر الغرفة. تعود الذبابة لتحط على سبابة زوجة ڤينديش الذابلة.

تصلي زوجة ڤينديش وهي تراقب الذبابة. تمشي الذبابة على جلدها حول ظفرها. «إنها الذبابة نفسها التي كانت تحت الشحرور الذهبي. إنها الذبابة التي حطت على غربال الطحين»، تفكر زوجة ڤينديش.

في الصلاة تجد زوجة ڤينديش موضعاً منخفضاً. تتنهد عابرة الموضع المنخفض. تتنهد لأن يديها تتحركان. لأن الذبابة الواقفة على ظفرها تحس بتنهدها. لأن الذبابة تطير عابرة خدها إلى فضاء الغرفة.

بهمس خفيف عبر الشفتين تقرأ زوجة ڤينديش صلاة – اغفر ذنوبنا.

تطير الذبابة تحت السقف وهي تطن أنشودة طويلة لمرافقي الميتة. أنشودة عن ماء المطر. أنشودة عن التراب بصفته قبراً.

أثناء الطنين تبكي زوجة ڤينديش دمعتين أخريين صغيرتين ومتألمتين. تتركهما لتسيلا على خديها. تتركهما لتصبحا مالحتين حول فمها.

تفتش ڤيلما النحيلة عن منديل جيبها تحت الكراسي. تفتش بين الأحذية. بين مسيلات الماء التي ترشح من المظلات السوداء.

تجد ڤيلما النحيلة بين الأحذية سُبحة. وجهها مدبب وصغير. تسأل: «لمن هذه السُبحة؟»، لا يلتفت أحد إليها. الجميع صامتون. «من يدري»، تقول متنهدة «كان هنا أناس كثيرون». تضع السبحة في جيب ردائها الأسود الطويل.

حطت الذبابة على خد العجوز كرونر. إنها شيء حي فوق جلدها الميت. تطن الذبابة عند زاوية فمها المتيبس.

ترقص الذبابة على ذقنها.

يسمع صوت المطر من وراء النافذة. ترتجف رموش مرتلة الصلوات، كأن المطر يسيل على وجهها، كأنه يجرف عينيها بعيداً. رموشها مكسرة من كثرة الصلاة. «الغيوم تغطي البلد كلها»، تقول وتغلق فمها أثناء الكلام وكأن المطر يسيل إلى حلقها.

تنظر ڤيلما النحيلة إلى الميتة وتقول: «في منطقة بَنات فقط يأتي طقسنا من النمسا وليس من بوخارست».

الطقس يصلّي في الطريق. تَنشقُ زوجة ڤينديش مع الدمعة الأخيرة. «يقول القدماء إن مَن يهطل المطر على تابوته كان إنساناً طيباً»، تقول في فضاء الغرفة.

هناك على التابوت باقات ورود تشبه أكواب الماء. لونها ليلكي، ذبولها يتأخر. الموت المجسد بجلدٍ وعظامٍ والمستلقي في التابوت سيأخذ الورود معه، وصلاة المطر ستأخذها معها.

تدخل الذبابة في أكمام الورود التي لا رائحة لها.

يدخل الخوري من الباب. خطواته ثقيلة وكأن جسمه ممتلئ بالماء. يناول الخوري الشماس المظلة السوداء ويقول: «تبارك يسوع المسيح». النساء تهمهمن كالطنين والذبابة تطن.

يُدخل النجار غطاء التابوت إلى الغرفة. ترتجف ورقة من باقة الورود، وتسقط فوق اليدين المصليتين المربوطتين بخيوط بيضاء. يضع النجار الغطاء على التابوت ويسمره بمسامير سوداء وبضربات قصيرة بمطرقته.

عربة الموتى تلمع. الحصان ينظر إلى الأشجار. يضع الحوذي الغطاء الرمادي على ظهر الحصان وهو يقول للنجار: «سيصاب الحصان بالزكام».

يرفع خادم القداس المظلة الكبيرة فوق رأس الخوري. ليس للخوري ساقان. طرف قفطانه يلامس الوحل.

يشعر ڤينديش بالمطر يقرقر في حذائه. إنه يعرف المسمار في غرفة المقدسات. المسمار الطويل الذي يُعلق عليه القفطان. يدوس النجار في بركة وحل. يرى ڤينديش رباط حذائه يغرق.

«القفطان الأسود رأى الكثير»، يفكر ڤينديش «رأى كيف يبحث الخوري مع النساء عن وثائق العماد في السرير الحديدي». النجار يسأل عن أمر ما. يسمع ڤينديش صوته. لا يفهم ڤينديش ما يقوله النجار. يسمع ڤينديش الكلارينت والطبل الثقيل وراءه.

على طرف قبعة الحارس الليلي هناك إكليل ذو أهداب من خيوط مطرية. تتطاير قماشة التابوت فوق عربة الموتى.

عند المطبات ترتجف باقات الورد. تنثر أوراقاً في الوحل الذي يتلألأ تحت العجلات. العجلات تدور على سطح برك الوحل.

الموسيقا النحاسية باردة. يبدو صوت الطبل الثقيل مقبوضاً ومبلولاً. فوق القرية تسير الأسطح باتجاه الماء.

المقبرة تضيء بالصلبان الرخامية البيضاء. تنتصب ساعة الكنيسة فوق القرية بلسانها الذي يتأتى. يرى ڤينديش قبعته تسير عبر بركة وحل. «منسوب بركة الطاحون سيرتفع»، يفكر ڤينديش. «سيجر المطر أكياس الطحين المخصصة للشرطي إلى ماء البركة».

هناك ماء في القبر. الماء أصفر كالشاي. «بوسع العجوز كرونر أن تشرب الآن»، تهمس ڤيلما النحيلة.

تدوس مرتلة الصلوات بحذائها على زهرة مرغريت نابتة في الممر بين القبور. خادم القداس يحمل المظلة مائلة. ينسحب دخان البخور نحو الأرض.

يدع الخوري قبضة طين تقطر من يده على التابوت، ويقول: «خذ التراب الذي لك. الرب يأخذ ما هو له». ينشد خادم القداس وراءه «آمين» طويلة ومبلولة. يرى ڤينديش أضراسه في فمه.

ماء القبر يلتهم قماشة التابوت. يمسك الحارس الليلي

قبعته أمام صدره. يضغط حافتها بيده. تتثنى القبعة، تلتف على نفسها مثل وردة سوداء.

يغلق الخوري كتاب الصلوات ويقول: «سنلتقي في الآخرة».

حفار القبور روماني. يسند المجراف إلى بطنه. يرسم الصليب على كتفيه. يبصق في راحتيه. يهيل التراب.

تعزف الموسيقا النحاسية لحناً جنائزياً بارداً. ليس للحن حواف. ينفخ أجير الخياط في بوق الغابة ويتسلل إلى اللحن. القمع الأصفر الكبير ينتصب إلى جانب أذنه. يضيء مثل قمع غرامافون. عندما يخرج اللحن الجنائزي من القمع يفرقع.

الطبل الثقيل يدمدم. حنجرة مقرئة الصلوات عالقة بين طرفي غطاء رأسها. القبر يمتلئ بالتراب.

يغمض ڤينديش عينيه. الصلبان الرخامية البيضاء المبلولة تؤلم عينيه، كما يؤلمهما المطر.

تخرج ڤيلما النحيلة من بوابة المقبرة. على قبر العجوز كرونر ترقد كتل من الورود الكأسية الشكل. يقف النجار عند قبر أمه ويبكي.

تقف زوجة ڤينديش على زهرة المرغريت. تقول: «هيا، لنذهب». يمشي ڤينديش إلى جانبها تحت مظلتها السوداء.

المظلة قبعة سوداء كبيرة. زوجة ڤينديش تحمل القبعة من قبضتها.

يقف حفار القبور حافياً ووحيداً في المقبرة. ينظف بمجراف القبر جزمته المطاطية.

الملك نائم

قبل الحرب وقفت فرقة القرية الموسيقية في محطة القطار بلباسها الرسمي الأحمر الداكن. كان جملون بناء المحطة ممتلئاً بأكاليل الزينة والزنابق النارية وأزهار النجمة الصيفية وبأوراق الأكاسيا. كان الناس في ثياب يوم الأحد وقد لبس الأطفال جوارب بيضاء حتى الركبة، حاملين باقات ثقيلة أمام وجوههم.

عندما دخل القطار إلى المحطة، عزفت الفرقة الموسيقية مارشاً. صفق الناس، وقذف الأطفال باقات الورود في الهواء.

مشى القطار ببطء. مدَّ شاب ذراعه الطويلة من النافذة. باعد ما بين أصابعه وصاح: «هدوء. جلالة الملك نائم».

عندما غادر القطار المحطة، دخلها قطيع من الماعز الأبيض قادماً من المرعى. مشت العنزات على طول السكة والتهمت باقات الورد.

غادر الموسيقيون إلى دورهم ومعهم مارشهم المقطوع. ذهب الرجال والنساء إلى دورهم مع تلويحاتهم المقطوعة. ذهب الأطفال إلى دورهم بأيدٍ فارغة.

ظلت في قاعة الانتظار في المحطة فتاة، بقيت تبكي حتى

التهمت العنزات جميع باقات الورد. كان يفترض، بعد أن أنتهى المارش وتوقّف التصفيق، أن تلقي قصيدة أمام الملك.

دار كبيرة

تمسح عاملة التنظيف الغبار عن الدرَج. على خدها لطخة سوداء ولون أحد جفنيها بنفسجي. تبكي قائلة: «ضربني ثانية».

تعاليق الثياب على جدران ردهة المدخل تلتمع فارغة. إنها مثل إكليل شوكي. الشحاطات الصغيرة ذات الكعوب المائلة مصفوفة في خط مستقيم تحت المشجب.

أحضر كل طفل إلى دار الحضانة صورة منسوخة عن داره. علقت أمالي الصور تحت المشجب.

كل صباح يبحث كل طفل عن سيارته، كلبه، دميته، زهرته، كرته.

يدخل أودو من الباب. يبحث عن علَمه. ألوانه أسود أحمر ذهبي. يعلق أودو معطفه على المشجب فوق علَمه. ويخلع حذاءه. ثم يضع شحاطته الحمراء. يخبئ حذاءه تحت معطفه.

تعمل والدة أودو في معمل الشُكولاته. وكل ثلاثاء تحضر لأمالي سكراً وزبدة وكاكاو وشكولاته. قالت لأمالي بالأمس: «سيبقى أودو في الحضانة ثلاثة أسابيع أخرى. وصلنا الإعلام عن الجواز».

تدفع طبيبة الأسنان ابنتها عبر الباب نصف المفتوح. قبعة الباسْك البيضاء تشبه بقعة ثلج على شعر الفتاة. تبحث الفتاة عن كلبها تحت المشجب. تعطي طبيبة الأسنان لأمالي باقة قرنفل وعلبة صغيرة وتقول شارحة: «إنها مصابة بالزكام. رجاء ناوليها الحبوب في الساعة العاشرة».

تنفض عاملة التنظيف ممسحة الغبار عبر النافذة. زهور الأكاسيا صفراء. ككل صباح ينظف الرجل العجوز الممشى أمام بيته. تنفخ الأكاسيا أوراقها مع الريح.

يرتدي الأطفال بدلات الصقور الموحدة، قمصاناً صفراء وبنطلونات زرقاء داكنة أو تنانير ذات ثنيات. تفكر أمالي: «اليوم هو الأربعاء. إنه يوم الصقور».

أحجار البناء تقرقع. الرافعات تئز. الهنود الحمر يمشون في صفوف أمام الأيدي الصغيرة. أودو يبني معملاً. الدمى ترضع الحليب من أصابع البنات.

جبين أنكا ساخن.

يخترق النشيد سقف غرفة الصف. في الطابق الأعلى تغني المجموعة الكبيرة.

أحجار البناء مصفوفة فوق بعضها. الرافعات صامتة. يقف صف الهنود الحمر عند حافة الطاولة. ليس للمعمل سقف. الدمية ذات الثوب الحريري الطويل مستلقية على

الكرسي. إنها نائمة. وجهها وردي.

أمام طاولة المربية يصطف الأطفال بشكل نصف دائرة بحسب أطوالهم. يضغطون راحات أيديهم على أفخاذهم ويرفعون ذقونهم. تتسع أعينهم وتدمع. إنهم يغنون بصوت عال.

الفتيات الصغيرات جنود صغار. يتألف النشيد من سبعة مقاطع.

تعلق أمالي خارطة رومانيا على الجدار.

تقول أمالي: «جميع الأطفال يسكنون إما في عمارات أو في دور. لكل دار غرف عدة. وجميع الدور تشكل داراً كبيرة. هذه الدار الكبيرة هي بلدنا. وطننا».

تشير أمالي إلى الخريطة وتقول: «هذا هو وطننا». تبحث برؤوس أصابعها عن النقاط السوداء وتقول: «وهذه هي مدن وطننا. المدن هي غرف الدار الكبيرة، وطننا. في دورنا يعيش آباؤنا وأمهاتنا، أي الوالدان. لكل طفل والده. ومثل والدنا الذي يعيش في دارنا، يكون الرفيق نيكولاي شاوشسكو والد بلدنا. ومثل والدتنا التي تعيش في دارنا، تكون الرفيقة إلينا شاوشسكو والدة بلدنا. الرفيق نيكولاي شاوشسكو هو والد جميع الأطفال، والرفيقة إلينا شاوشسكو هي والدة جميع الأطفال. جميع الأطفال

يحبون الرفيق والرفيقة لأنهما والداهم».

تضع عاملة التنظيف سلة ورقية فارغة إلى جانب الباب.

«اسم وطننا جمهورية رومانيا الاشتراكية»، تقول أمالي وتتابع: «الرفيق نيكولاي شاوشسكو هو الأمين العام لبلدنا، لجمهورية رومانيا الاشتراكية».

يقف فتى ويقول: «لدى والدي في البيت كرة أرضية». يؤشر بيديه إلى حجم الكرة. يصدم المزهرية. تسقط القرنفلات على الماء ويبتل قميص الصقر.

حطام المزهرية أمامه على الطاولة. الفتى يبكي. تبعد أمالي عنه الطاولة. لا يجوز أن تصيح في وجهه، فوالد كلاوديو هو مدير متجر اللحوم على الناصية.

تضع أنكا رأسها على الطاولة وتسأل باللغة الرومانية: «متى ستذهب إلى البيت؟» يمر الجواب بالألمانية ثقيلاً متجاوزاً رأسها. أودو يبني سقفاً. يقول: «والدي هو الأمين العام لبيتنا».

تنظر أمالي إلى أوراق الأكاسيا الصفراء. الرجل العجوز متكئ على النافذة المفتوحة. «ديتمار يشتري بطاقات سينما»، تفكر أمالي.

يمشي الهنود الحمر على الأرض. تبتلع أنكا الحبوب.

تتكئ أمالي على إطار النافذة وتسأل: «من ينشد

قصيدة؟»

«أعرف بلداً بقوس جبلي،
من ذراه يبزغ الفجر في البكور.
وفي غاباته تهب رياح الربيع
كأمواج البحر حتى يزهر كل شيء».

كلاوديو يتكلم الألمانية بطلاقة. كلاوديو يرفع ذقنه. كلاوديو ينطق الألمانية بصوت رجل ناضج ضئيل الحجم.

عشر لايات[4]

تعصر الغجرية القصيرة تنورتها الحشيشية اللون. يسيل الماء من يدها. تتدلى ضفيرتها من منتصف رأسها وتستلقي على كتفها. ضفرت مع شعرها شريطاً أحمر يتدلى من نهاية الضفيرة كاللسان. تقف الغجرية القصيرة حافية، بأصابع قدمين موحلة أمام عمال الجرَّار.

يضع عمال الجرَّار على رؤوسهم قبعاتٍ صغيرة مبلولة، ويضعون أيديهم السوداء على الطاولة. يقول لها أحدهم: «أرني، فأعطيك عشر لايات». يضع عشر لايات على الطاولة. يضحك عمال الجرار. تبرق عيونهم. تحمر وجوههم. نظراتهم تتطاير على التنورة الطويلة الموردة. ترفع الغجرية تنورتها. يُفرغ عامل الجرار كأسه في جوفه. تأخذ الغجرية ورقة العشر لايات عن الطاولة. تدير ضفيرتها حول إصبعها وتضحك.

يشم ڤينديش رائحة الكحول والعرق من الطاولة المجاورة. يقول النجار: «إنهم يرتدون الصدارات الفرائية طوال الصيف». على إبهامه رغوة بيرة. يغمس سبابته في كأس البيرة ويقول: «الخنزير على الطاولة المجاورة ينفخ

(4) لاي = العملة الرسمية في رومانيا.

رماد سيكارته في بيرتي». يلتفت نحو الروماني الذي يقف وراءه. السيكارة تتدلى من زاوية فم الروماني. إنها مبلولة بلعابه. يضحك ويقول بالألمانية: «كفى كلاماً بالألمانية». ويتابع بالرومانية. «هنا رومانيا».

نظرات النجار شهوانية. يرفع كأسه ويتجرعه ثم يرفع صوته قائلاً: «سترتاحون منا قريباً». يؤشر لصاحب الحانة الواقف أمام طاولة عمال الجرّار ويهتف له: «قدح آخر».

يمسح النجار فمه بظهر يده ويسأل: «هل ذهبت إلى البستاني؟» «لا»، يجيب ڤينديش، فيسأله: «أتعرف مكانه؟» يهز ڤينديش رأسه إيجاباً: «في الضاحية»، فيكمل النجار: «في فراتيليا، في شارع إنيسكو».

تشد الغجرية القصيرة لسان ضفيرتها الأحمر. تضحك وتدور حول نفسها. يرى ڤينديش ساقيها. يسأل: «بكم؟». «خمسة آلاف عن كل شخص». يجيب النجار ويتناول قدح البيرة من يد صاحب الحانة ويتابع: «إنها دار من طابق واحد. البيوت الزجاجية على يساره. إذا كانت السيارة الحمراء واقفة في الحوش، يكون موجوداً. في الحوش تجد شخصاً يحطِّب، هو الذي سيدخلك إلى الدار. لا ترن الجرس. إذا فعلت، يختفي الحطّاب ولا يعود لفتح البوابة».

الرجال والنساء الواقفون في زاوية الحانة يشربون من

زجاجة واحدة. هناك رجل بقبعة مخملية سوداء يحمل طفلاً على ذراعه. يرى ڤينديش كعبي الطفل العاريين. يمد الطفل يده نحو الزجاجة. يفتح فمه. يضغط الرجل عنق الزجاجة على الفم. يغمض الطفل عينيه ويشرب. «يا سكير»، يقول الرجل. يسحب الزجاجة ويضحك. المرأة الواقفة إلى جانبه تأكل قشرة رغيف خبز. تلوك وتشرب. تتأرجح في الزجاجة نثارات خبز بيضاء.

«تفوح منهم رائحة اسطبل»، يقول النجار. هناك شعرة بنية طويلة على إصبعه. «إنهم حلاَّبون»، يقول ڤينديش.

النساء تغني. يترنح الطفل أمامهن ويشدهن من تنانيرهن.

«اليوم موعد توزيع الرواتب»، يقول ڤينديش «يشربون لثلاثة أيام حتى لا يبقى معهم شيء».

«الحلاّبة ذات غطاء الرأس الأزرق تسكن وراء الطاحون»، يقول ڤينديش.

ترفع الغجرية القصيرة تنورتها. يقف حفار القبور إلى جانب مجراف القبور. يمد يده إلى جيبه. يعطيها عشر لايات.

الحلابة ذات غطاء الرأس الأزرق تغني وتتقيأ على الجدار.

شمّرت الكمسارية كيها. إنها تأكل تفاحة. عقرب الثواني يتحرك في ساعتها. الساعة كذا وخمس دقائق. عربة الترام تصدر صريراً.

يصدم طفل أمالي من فوق حقيبة امرأة عجوز. أمالي تركض.

يقف ديتمار أمام مدخل المرآب. فمه يتحرق شوقاً إلى خد أمالي. «لدينا وقت، البطاقات لعرض السابعة. بطاقات عرض الخامسة نفدت»، يقول.

المقعد بارد. هناك رجال قصار القامة يحملون عبر العشب سلال مراعٍ مملوءة بأوراق الأشجار الجافة.

لسان ديتمار حار. يلتهب في أذن أمالي. أمالي تغمض عينيها. أنفاس ديتمار في رأسها أكبر من الأشجار. يده باردة تحت قميصها.

يغلق ديتمار فمه ثم يقول: «استدعيت إلى الخدمة العسكرية. أبي أحضر لي الحقيبة».

تبعد أمالي فمه عن أذنها. تضغط يدها على فمه. تقول: «لنذهب إلى المدينة. أنا أرتجف من البرد».

تميل أمالي على ديتمار. تشعر بخطواته. تمشي ملتصقة به

تحت سترته وكأنها كتفه.

هناك قطة نائمة في واجهة المحل. ينقر ديتمار على زجاج الواجهة ويقول: «ما زال علي أن أشتري جوارب صوفية». أمالي تأكل كعكة هلالية الشكل. ينفخ ديتمار سحابة دخان في وجه أمالي. «تعال»، تقول «سأريك ڤازي الأرضي».

ترفع الراقصة يدها فوق رأسها. يبدو الثوب ذو التخريمات جامداً وراء الزجاج.

يفتح ديتمار باباً خشبياً إلى جانب الواجهة الزجاجية. هناك ممر معتم وراء الباب. تفوح من العتمة رائحة بصل فاسد. تقف إلى جانب الجدار ثلاثة براميل قمامة كعلب ضخمة إلى جانب بعضها بعضا.

يضغط ديتمار أمالي على أحد البراميل فيقرقع غطاؤه. تحس أمالي به ملتصقاً بجسدها. تتمسك بكتفيه. يُسمع من الحوش الداخلي صوت طفل. تسمع موسيقا من النافذة الصغيرة في آخر الحوش.

ترى أمالي حذاء ديتمار يتقدم في الصف. تمتد يد وتمزق أطراف البطاقات. ترتدي مرشدة المحلات غطاء رأس أسود وثوباً أسود. تطفئ مصباح الجيب. تتساقط عرانيس الذرة من عنق الحصادة الطويل في مقطورة الجرّار. انتهى الفيلم الدعائي.

يستلقي رأس ديتمار على كتف أمالي. تنمو على الشاشة حروف حمراء: «قراصنة القرن العشرين». تضع أمالي يدها على ركبة ديتمار وتهمس في أذنه: «فيلم روسي ثانية»، فيجيب في أذنها: «ملون على الأقل».

مياه خضراء ترتعش. غابات خضراء ترمي صورتها على الشاطئ. سطح السفينة عريض. امرأة جميلة تضع يديها على درابزين السفينة. شعرها يرفرف كصفحات ورقية.

يضغط ديتمار إصبع أمالي في يده. ينظر إلى الشاشة. المرأة الجميلة تتكلم.

«لن نرى بعضنا بعد الآن»، يقول «علي الالتحاق بالجيش وأنت سوف تهاجرين». ترى أمالي خد ديتمار، الخد يتحرك، الخد يتكلم. «سمعت أن رودي ينتظرك»، يقول ديتمار.

على الشاشة هناك يد تنفتح. تمتد إلى جيب السترة. هناك على الشاشة إبهام وسبابة. بينهما مسدس.

ديتمار يتكلم. تسمع أمالي الطلقة من وراء صوته.

المياه غير مستقرة

«البومة مشلولة»، يقول الحارس الليلي «إنها لا تحتمل يوم وفاة وعاصفة مطرية قصيرة وشديدة في الوقت نفسه. فإذا لم تر القمر هذه الليلة فإنها لن تطير أبداً. وإذا نفقت فستفسد رائحة المياه».

«البومات غير مستقرة والمياه غير مستقرة» يقول ڤينديش «إذا نفقت هذه، ستأتي بومة أخرى إلى القرية. بومة فتية وغبية ولا تعرف طريقها. ستحط على جميع الأسطح».

ينظر الحارس الليلي إلى القمر، ويقول: «عندها سيموت مجدداً عدد من الشباب». يرى ڤينديش أن الهواء أمام وجهه يخص الحارس الليلي. صوته يكفي لجملة واحدة متعبة، فيقول: «عندها سيكون الحال كما في الحرب».

«أصوات نقيق الضفادع تصل إلى داخل الطاحون»، يقول الحارس الليلي.

إنها تدفع الكلب إلى الجنون.

الديك الأعمى

تجلس زوجة ڤينديش على حافة السرير. تقول: «جاء رجلان اليوم. حسبا عدد الدجاج وسجلاه. أمسكا بثماني دجاجات وأخذاها معهما. حبسا الدجاجات في أقفاص معدنية. مقطورة الجرَّار كانت مليئة بالدجاج». تتنهد، وتتابع: «كما وقّعت لهم على مئة كيلو ذرة ومئة كيلو بطاطا. قالوا إنهم سيأتون لأخذها في ما بعد. البيضات الخمسون أعطيتهم إياها مباشرة. دخلا إلى الحديقة بجزمتين مطاطيتين. شاهدا البرسيم أمام الشونة. قالا: «علينا أن نزرع الشوندر السكري هنا في السنة القادمة».

يرفع ڤينديش غطاء الإبريق ويسأل: «وماذا عن الجيران؟»، «لم يذهبا إلى الجيران»، تجيب زوجة ڤينديش. تدخل السرير وتغطي نفسها. تضيف: «قالا إن لدى الجيران ثمانية أطفال، في حين أن لدينا ابنة واحدة تكسب مالاً من عملها».

هناك في القدر كبد ودم. «اضطررت أن أذبح الديك الأبيض»، تقول زوجة ڤينديش «تجول الرجلان في الحوش بصخب. الديك ارتعب. طار باتجاه السياج واصطدم رأسه به. عندما غادرا كان قد عمي».

في القِدر تسبح خواتم البصل فوق عينين منتفختين.

«وأنتِ التي قلت بأن علينا الاحتفاظ بالديك الأبيض الكبير، كي نحصل في السنة القادمة على دجاج كبير أبيض»، يقول ڤينديش، فتجيبه زوجته: «وأنت أجبت بأن الأبيض شديد الحساسية، وكنت محقاً في ذلك».

«عندما ركبت الدراجة إلى الطاحون، ترجلت عند صليب البطل»، يقول ڤينديش في العتمة ويتابع: «أردت أن أدخل الكنيسة وأصلي. كان باب الكنيسة موصداً. ففكرت بأن هذا نذير سوء. فالقديس أنطونيوس يقف وراء الباب مباشرة. كتابه السميك بني اللون، مثل جواز السفر».

في هواء الغرفة الدافئ المعتم يحلم ڤينديش بأن السماء قد انفتحت، بأن السحب تندفع مغادرة القرية، وعبر السماء الفارغة يطير ديك أبيض، يصدم رأسه بأشجار الحور اليابس الواقفة في المرج. إنه لا يرى، إنه أعمى. يقف ڤينديش على طرف حقل أزهار دوار الشمس. ينادي: «الطائر أعمى». صدى صوته يعود كصوت زوجته. يخترق ڤينديش حقل أزهار دوار الشمس ويصرخ: «أنا لا أبحث عنك، لأني أعرف، أنك لست هنا».

السيارة الحمراء

تتألف البراكة الخشبية من مربع أسود. الدخان يتصاعد من البوري الصفيح، ويزحف على الأرض المبلولة. باب البراكة مفتوح. في البراكة يجلس رجل ببذلة عمل زرقاء على مقعد خشبي. على الطاولة هناك صحن معدني يتصاعد منه البخار. الرجل يتابع ڤينديش بعينيه.

غطاء القناة المعدني مُزاح جانباً. في القناة يقف رجل. يرى ڤينديش رأس الرجل بالخوذة الصفراء فوق الأرض. يمر ڤينديش بمحاذاة ذقن الرجل. يتابع الرجل ڤينديش بعينيه.

يضع ڤينديش يديه في جيبي معطفه. يحس برزمة الأوراق المالية في الجيب الداخلية لسترته.

على الجانب الأيسر من الحوش توجد البيوت الزجاجية. ألواح الزجاج مغشاة. الغشاوة تلتهم النباتات. تلتهب الورود حمراء خلال الضباب. تقف السيارة الحمراء في منتصف الحوش. هناك حطب إلى جانب السيارة. وهناك حطب مصفوف على جدار الدار. الفأس ملقاة إلى جانب السيارة.

يتحرك ڤينديش بصمت. يكوّر تذكرة حافلة الترام في جيب معطفه. يحس عبر حذائه بالأسفلت المبلول.

يتلفت ڤينديش حوله. الحطاب ليس في الحوش. الرأس ذو الخوذة الصفراء يتابع ڤينديش بعينيه.

انتهى السياج. يسمع ڤينديش أصواتاً من البيت المجاور. ثمة تمثال لقزم حديقةٍ يجر غصن أزهار كأسية الشكل، ويلبس قبعة حمراء. هناك كلب ببياض الثلج يَدور حوله وينبح. ينظر ڤينديش نحو أسفل الشارع. سكة الترام تمتد نحو الفراغ. ثمة عشب ينمو بين قضيبي السكة. للعشب أوراق سوداء بسبب النفط، وهي صغيرة ومطوية نتيجة زعيق الحافلة وصراخ السكة.

يستدير ڤينديش عائداً. الرأس ذو الخوذة الصفراء يغطس في القناة. والرجل ذو بدلة العمل الزرقاء يسند مكنسة إلى جدار البراكة. قزم الحديقة يرتدي مئزراً أخضر. غصن الزهور الكأسية يرتعش. الكلب الأبيض كالثلج يقف عند السياج ساكتاً. الكلب الأبيض كالثلج يلاحق ڤينديش بعينيه.

من بوري الصفيح ينبع دخان. الرجل ذو بدلة العمل الزرقاء يكنس الطين من حول البراكة، ويلاحق ڤينديش بعينيه.

نوافذ الدار مغلقة. الستائر البيضاء تعمي العيون. فوق السياج شُدَّ صفّان من الأسلاك الشائكة إلى كلاّبات صدئة. للحطب المصفوف حواف بيضاء. الحطب حديث الفلق

بالفأس ذات النصل اللماع. السيارة الحمراء تقف في وسط الحوش. الورود تشتعل خلال الضباب.

يتجاوز ڤينديش ثانية ذقن الرجل ذي الخوذة الصفراء.

انتهى السلك الشائك. الرجل ذو البدلة الزرقاء يجلس في البراكة يتابع ڤينديش بعينيه.

يستدير ڤينديش عائداً. يقف أمام البوابة.

يفتح ڤينديش فمه. الرأس ذو الخوذة الصفراء يرتفع فوق الأرض. يشعر ڤينديش بقشعريرة برد. لا صوت في فمه.

حافلة الترام تصر. على زجاجها غشاوة. السائق يلاحق ڤينديش بعينيه.

هناك جرس على عمود البوابة. للجرس زر كرأس الإصبع. يضغط ڤينديش عليه. يرن الجرس تحت إصبعه. يرن في الحوش. يرن في الدار من مسافة بعيدة. يتناهى الرنين من وراء الجدران عميقاً وكأنه مدفون.

يضغط ڤينديش خمس عشرة مرة على رأس الإصبع الأبيض. ڤينديش يعدُّ الأصوات الزاعقة في إصبعه، الأصوات العالية في الحوش، والأصوات الدفينة في الدار تتداخل في بعضها بعضاً.

يظهر البستاني وراء الزجاج، في السياج، مدفوناً في الجدران.

الرجل ذو بدلة العمل الزرقاء يشطف الصحن المعدني.

يراقب. يمر ڤينديش بحذاء ذقن الرجل ذي الخوذة الصفراء.

يمشي ڤينديش على طول السكة والمال في جيبه.

الأسفلت يؤلم قدمي ڤينديش.

كلمة السر

يركب ڤينديش الدراجة من الطاحون إلى الدار. الظهيرة أكبر من القرية. الشمس تُغرِق سَمتَها. الموضع المنخفض متشقق ويابس.

زوجة ڤينديش تكنس الحوش. الرمل يتجمع حول أصابع قدميها كالماء. ثمة حلقات موجية حول المكنسة لا تتحرك. «ما زلنا في الصيف والأكاسيا تصْفرّ»، تقول زوجة ڤينديش. يفك ڤينديش أزرار قميصه، ويقول: «سيكون الشتاء قاسياً، إذا كانت الأشجار في الصيف تجف».

تدير الدجاجات رؤوسهن تحت أجنحتهنّ. يبحثنَ بمناقيرهنّ عن ظلها الذي لا يمنح أي برود. خنازير الجار المبرقعة تنبش الجزر البري ذي الأزهار البيضاء وراء السياج. ينظر ڤينديش عبر الأسلاك ويقول: «إنهم لا يطعمون هذه الخنازير شيئاً، هؤلاء الرومانيون الأنذال. لا يعرفون حتى كيف يربي الإنسان الخنازير».

تمسك زوجة ڤينديش المكنسة أمام بطنها وتقول: «لا بد من وضع الخواتم في خطومها، يبدو أنها ستستمر في الحفر حول الدار حتى الشتاء، وستقلب الدار حتى ئذٍ رأساً على عقب».

تأخذ زوجة ڤينديش المكنسة إلى مستودع الأدوات. تقول: «ساعية البريد كانت هنا. كانت تحزّق وكانت تفوح منها رائحة الشناپس. الشرطي يشكر لك الطحين، قالت عن لسانه، وأن على أمالي أن تحضر يوم الأحد لإجراء المقابلة. عليها أن تحضر معها التماساً وطوابع بقيمة ستين لاي».

يعض ڤينديش على شفتيه. يتسع شدقاه في وجهه حتى الجبهة ويقول: «ما نفع الشكر».

ترفع زوجة ڤينديش رأسها وتقول: «كنت أعرف أنك بطحينك لن تحقق الكثير»، «كثير لدرجة أن تصبح ابنتي فراشاً»، يصيح ڤينديش في الحوش، يبصق على التراب ويقول: «يا للشيطان، يا للعار». تبقى قطرة من لعابه عالقة على ذقنه.

«و بـ ياللشيطان هذه لن تحقق الكثير أيضاً»، تقول زوجة ڤينديش وقد صار عظما خديها حجرين أحمرين. «لم تعد المسألة تتعلق الآن بالعار، بل بجواز السفر».

يضرب ڤينديش باب المستودع بقبضته ويقول: «أنتِ أعلم بذلك. علمك بذلك يعود إلى روسيا، فهناك أيضاً لم تأبهي لمسألة العار».

«أنت خنزير»، تصرخ زوجة ڤينديش. ينفتح باب المستودع وينغلق من نفسه وكأن الهواء يلعب به. تبحث

زوجة ڤينديش عن فمها برؤوس أصابعها وتقول: «عندما سيرى الشرطي أن ابنتنا أمالي ما زالت عذراء، ستتلاشى شهوته».

يضحك ڤينديش ويقول: «عذراء، مثلما كنتِ عذراء آنذاك في المقبرة بعد الحرب. في روسيا كان الناس يموتون من الجوع في حين كنت تعيشين من العهر. وكان يمكن أن تستمري في عهرك بعد الحرب، لو لم أتزوجك».

تترك زوجة ڤينديش فمها نصف مفتوح. ترفع يدها. تمد سبابتها في الهواء وتصرخ: «أنت تعتبر الناس كلهم سيئين، لأنك أنت نفسك سيىء ولأنك لا تملك قواك العقلية كاملة في رأسك»، وتسير بكعبيها المتآكلين على التراب.

يمشي ڤينديش في إثر كعبيها. تتوقف في الشرفة. ترفع مئزرها. وتمسح به الطاولة الفارغة. «لقد أخطأتَ بأمرٍ ما عند البستاني»، تقول «الدخول إليه مسموح للجميع. الكل مهتم بأمور جوازاتهم، إلا أنت، لأنك ذكي وشريف».

يدخل ڤينديش الردهة الأمامية. البراد يصدر أزيزاً. «التيار كان مقطوعاً طوال قبل الظهر»، تقول زوجة ڤينديش «الجليد ذاب، واللحم سيفسد إن استمر الحال على هذا المنوال».

هناك مغلف رسالة على سطح البراد. «ساعية البريد جلبت رسالة، من الفرّاء»، تقول زوجة ڤينديش.

يقرأ ڤينديش الرسالة ويقول: «لا ذكر لرودي في الرسالة. لا شك في أنه في المصح ثانية».

زوجة ڤينديش تنظر نحو الحوش. يتابع ڤينديش: «يرسل تحياته لأمالي. لماذا لا يكتب إليها بنفسه؟»

«كتب إليها هذه الجملة الوحيدة»، يقول ڤينديش «هذه الجملة مع حرفي PS.»، يضع ڤينديش الرسالة فوق البراد.

«ما معنى PS؟» تسأل زوجة ڤينديش.

يهز ڤينديش بكتفيه ويقول: «سابقاً كانت تعني قوة الأحصنة. لا شك في أنها كلمة سر الآن».

تقف زوجة ڤينديش على عتبة الباب وتقول متنهدة: «هذا ما يأتينا من ذهاب الأولاد إلى المدرسة».

يقف ڤينديش في الحوش. القطة مستلقية على الحجارة. إنها نائمة وقد غطتها الشمس. وجهها أحمر. تصدر عن بطنها تحت الفرو حركة تنفس ضعيفة.

ينظر ڤينديش إلى بيت الفرّاء المنتصب هناك في عز الظهيرة وقد أكسبته الشمس لمعاناً أصفر.

«دار الفرّاء ستصبح مصلى للرومانيين المعمدانيين»، يقول الحارس الليلي لڤينديش أمام الطاحون. «الذين يلبسون القبعات الصغيرة هم المعمدانيون. إنهم يعولون عندما يصلون، ونساؤهم تتأوه عندما ينشدن التراتيل الكنسية، وكأنهن في السرير. وتصبح عيونهن حمراء مثل كلبي».

الحارس الليلي يتحدث همساً، رغم أنه لا يوجد عند ضفة البركة سوى ڤينديش وكلبه. يرفع رأسه نحو الليل خيفة مجيء ظل ليتنصت ويبصبص. يقول: «لا يوجد لديهم سوى إخوة وأخوات. يتناكحون في أعيادهم. كل واحدة مع أول من يمسك بها في العتمة».

يتابع الحارس الليلي جرذ ماء بعينيه. يزعق الجرذ بصوت طفل ويقفز إلى القصب. لا يسمع الكلب همس الحارس الليلي، بل يقف على الضفة وينبح على الجرذ. «يفعلونها على السجاد في المصلى»، يقول الحارس الليلي «ولهذا لديهم كل هؤلاء الأولاد».

من ماء البركة ومن همس الحارس الليلي يحس ڤينديش في أنفه وجبهته بزكام حارق ومالح. يحس بثقب في لسانه من الدهشة والصمت.

«هذا الدين مصدره أمريكا»، يقول الحارس الليلي. يتنفس ڤينديش عبر الزكام المالح ويقول: «هذا لا يصدق، كمن يسير فوق الماء».

«الشيطان يسير فوق الماء»، يقول الحارس الليلي «والشيطان يسكن في أجسامهم. حتى كلبي لا يحتملهم. ينبح عليهم. فالكلاب تشم الشيطان».

أخذ الثقب في لسان ڤينديش يمتلئ ببطء. يقول ڤينديش: «كان الفرّاء دائماً يقول إنَّ اليهود في أمريكا هم الذين يمسكون بالمجاذيف». «صحيح»، يقول الحارس الليلي «اليهود يفسدون العالم. اليهود والنساء».

يهز ڤينديش رأسه موافقاً. إنه يفكر بأمالي: «كل سبت عندما تأتي إلى الدار أرى بعيني أن أصابع قدميها تميل جانباً عندما تمشي على الأرض».

الحارس الليلي يأكل التفاحة الخضراء الثالثة. جيب سترته مملوءة بالتفاح الأخضر. «ما يقال عن النساء في ألمانيا صحيح»، يقول ڤينديش «كتب الفرّاء في رسالته، أن أسوأ امرأة هنا تساوي أحسن امرأة هناك».

ينظر ڤينديش إلى الغيوم ويقول: «النساء يملن إلى أحدث الموضات، وهن يفضلن لو يمشين عاريات في الشارع. حتى في المدرسة يقرأ الأطفال مجلات بصور

نساء عاريات، كتب الفراء».

يعبث الحارس الليلي بالتفاحات الخضراء في جيب سترته. يصق القضمة ويقول: «منذ أن هطلت المطرة الغزيرة دخل الدود في الفواكه. يلحس الكلب القضمة المبصوقة. يلتهم الدودة.

«ثمة ما هو فاسد طوال هذا الصيف»، يقول ڤينديش «زوجتي تكنس الحوش كل يوم. الأكاسيا تجف وتيبس. في حوشنا لا تنمو الأكاسيا. عند الرومانيين هناك ثلاثة في كل حوش، طويلة، ليست عارية. وفي حوشنا يتجمع من أوراق الشجر يومياً ما يعادل عشر شجرات. زوجتي لا تدري من أين تأتي كل هذه الأوراق. لم يسبق أن تجمع في حوشنا كل هذا الورق اليابس». «الريح تحملها»، يقول الحارس الليلي. يغلق ڤينديش باب الطاحون.

«ليس هناك ريح»، يقول ڤينديش. يباعد الحارس الليلي أصابع يده في الهواء ويجيب: «هناك ريح دائماً، حتى وإن لم يشعر الإنسان بها».

«حتى في ألمانيا تجف الغابات في منتصف السنة»، يقول ڤينديش.

«هذا ما كتبه الفرّاء»، يقول وهو ينظر إلى السماء الواسعة والمنخفضة «لقد استقروا في شتوتغارت. رودي استقر في

مدينة أخرى. لم يذكر الفرّاء اسمها. الفرّاء وزوجته حصلا على منزل من الضمان الاجتماعي، بثلاث غرف. لديهم مطبخ مع زاوية للجلوس وحمام جدرانه كلها مرايا».

يضحك الحارس الليلي ويقول: «وهل يرغب الإنسان في هذا العمر برؤية نفسه عارياً في المرآة!»

«حصلا على الأثاث هدايا من جيران أثرياء»، يقول ڤينديش «إضافة إلى تلفزيون. تسكن إلى جانبهم امرأة وحيدة. عجوز دلوعة، يقول الفرّاء، وهي لا تأكل اللحم لأنه سيقتلها إن فعلت، على حد قولها».

«أحوال الألمان ممتازة»، يقول الحارس الليلي «فليأتوا إلى رومانيا، عندها سيأكلون كل شيء».

«حصل الفرّاء على راتب تقاعد جيد. زوجته تشتغل في رعاية المسنين في غرفهم في دار للمسنين. الطعام هناك جيد. عندما يحتفلون بعيد ميلاد أحد المسنين يرقصون».

يضحك الحارس الليلي ويقول: «هذا يناسبني تماماً، طعام جيد وبعض الصبايا».

يعض قلب تفاحة. تتساقط البذور البيضاء على سترته. يقول: «لست أدري. لست قادراً على حسم أمري لتقديم التماس الهجرة».

يرى ڤينديش الزمن المتوقف في وجه الحارس الليلي. يرى

النهاية على خدي الحارس الليلي وأن الحارس الليلي سيبقى هنا حتى ما بعد النهاية.

ينظر ڤينديش إلى العشب. حذاؤه أبيض من أثر الطحين. يقول: «عندما يبدأ الإنسان، تسير الأمور بعد ذلك من نفسها».

يتنهد الحارس الليلي ويقول: «عندما يكون الإنسان وحيداً، يصبح الحال صعباً. الموافقة ستأخذ وقتاً طويلاً، ونحن نتقدم في السن ولا نرجع شباباً».

يضع ڤينديش يده على ساق بنطاله. يده باردة وفخذه دافئ. «هنا سيزداد الحال سوءاً باستمرار»، يقول «إنهم يأخذون دجاجنا والبيض. يأخذون حتى الذرة التي لم تنضج بعد. سيأخذون دارك وحوشك أيضاً».

القمر كبير. يسمع ڤينديش الجرذان المتجهة إلى الماء. «أحس بالريح»، يقول «أشعر بألم في مفاصل ساقي. لا بد من هطول المطر قريباً».

يقف الكلب عند رزمة الأعشاب اليابسة وينبح. «الريح القادمة من الوادي لا تجلب مطراً، بل غيوماً وغباراً فقط»، يقول الحارس الليلي. «قد تهب عاصفة تُسقط الفاكهة عن الأشجار»، يقول ڤينديش.

على القمر غلالة حمراء.

«وماذا عن رودي؟» يسأل الحارس الليلي.

«يستريح»، يجيب ڤينديش ويحس بالكذبة تحرق خديه.

«في ألمانيا يختلف الوضع عن هنا في ما يتعلق بالزجاج. يقول الفراء في رسالته إنه يجب أن نأخذ معنا ما عندنا من كريستال، والخزفيات وريش المخدات. قال أن نترك الدامسكو والألبسة الداخلية، فهي متوفرة هناك ورخيصة. الفِراء غالية جداً. الفِراء والنظارات».

يعلك ڤينديش قشة ويقول: «البداية لن تكون سهلة».

يلوغ الحارس الليلي برأس سبابته بين أضراسه. يقول: «على الإنسان أن يعمل أينما كان في العالم كله».

يلف ڤينديش القشة حول إصبعه. «الصعب حقاً، يكتب الفراء، هو مرض نعرفه من أيام الحرب. الحنين إلى الوطن».

يحمل الحارس الليلي تفاحة بيده ويقول: «أنا لن أشعر بالحنين، فهناك سأكون ألمانياً بين ألمان».

يعقد ڤينديش القشة وهو يقول: «كتب الفرّاء أن هناك من الأجانب أكثر مما يوجد هنا. هناك الأتراك والزنوج، وهم يتكاثرون بسرعة».

يسحب ڤينديش القشة من بين أسنانه. إنها باردة. لثته باردة. يمسك ڤينديش السماء بفمه، والريح والليل. تتمزق القشة بين أسنانه.

الفراشة البيضاء

أمالي واقفة أمام المرآة. ملابسها الداخلية وردية اللون. تحت سرة أمالي تنمو مخرمات بيضاء. من خلال ثقوب المخرمات يرى ڤينديش جلد أمالي فوق ركبتيها. يعلو ركبة أمالي زغب ناعم. ركبتها بيضاء ومستديرة. يرى ڤينديش ركبة أمالي مرة ثانية في المرآة. يرى ثقوب المخرمات تسبح متداخلة في بعضها بعضا.

عينا زوجة ڤينديش تقفان في المرآة. في عيني ڤينديش تطارد الأهدابُ المرتعشةُ المخرماتِ باتجاه الصدغين. في زاوية عين ڤينديش ينبثق شريان أحمر، يمزق المخرمات. عين ڤينديش تدير المزق في الحدقة.

النافذة مفتوحة. تلتصق أوراق شجرة التفاح بزجاج النافذة.

شفتا ڤينديش تشتعلان. إنهما تقولان شيئاً ما. وما تقولانه ليس إلا حواراً مع الذات في الغرفة، في الجبين.

«إنه يكلم نفسه»، تقول زوجة ڤينديش للمرآة.

من النافذة تدخل فراشة بيضاء إلى الغرفة. يتابعها ڤينديش بعينيه. طيرانها طحين وريح.

تمد زوجة ڤينديش يدها إلى المرآة. بأصابعها الذابلة ترتب

حمالتي قميص أمالي الداخلي.

ترفرف الفراشة البيضاء فوق مشط أمالي. وبحركة واسعة جداً تسحب أمالي المشط عبر شعرها. تنفخ على الفراشة طاردة إياها مع طحينها. تحط الفراشة على المرآة. تترنح على الزجاج فوق بطن أمالي.

تضغط زوجة ڤينديش رأس إصبعها على الفراشة وتهرسها على زجاج المرآة.

تبخ أمالي سحابتين كبيرتين تحت إبطيها. تسيل السحابتان تحت ذراعيها إلى قميصها الداخلي. علبة البخاخ سوداء اللون. مكتوب عليها بحروف خضراء فاقعة (ربيع إيرلندي).

تعلق زوجة ڤينديش ثوباً أحمر على مسند الكرسي. تضع صندلاً بكعب عالٍ وأنشوطات رفيعة تحت الكرسي. تفتح أمالي حقيبة يدها. تنقط برأس إصبعها ظلاًّ على جفنيها. «لا تجعليه فاقعاً»، تقول زوجة ڤينديش «كيلا تلوكنا الألسن». أذنها في المرآة كبيرة ورمادية. جفنا أمالي بزرقة الماء. «يكفي»، تقول زوجة ڤينديش. دهان حواجب أمالي من سخام المدخنة. تقرب أمالي وجهها من المرآة. نظرتها زجاجية.

يسقط من حقيبة يد أمالي ظرف حبوب على السجادة. «ما هذا؟» تسأل زوجة ڤينديش. «الحبة»، تجيب أمالي وهي

تنحني وتلتقط الظرف وتضعه في حقيبتها، وتفتل إصبع أحمر الشفاه في غطائه الأسود.

تُدخل زوجة ڤينديش عظمي خديها في المرآة وتسأل: «وما حاجتك إلى الحبوب؟ أنت لست مريضة، أليس كذلك؟»

تلبس أمالي الثوب الأحمر من فوق رأسها. تنزلق جبهتها عبر فتحة القبة البيضاء. تقول وعيناها ما زالتا تحت الثوب: «لكني أتناولها من باب الاحتياط».

يضغط ڤينديش يديه على صدغيه. يخرج من الغرفة. يجلس في الشرفة إلى الطاولة الفارغة. الغرفة معتمة. ثمة ثقب في ظل على الجدار. الشمس تتلألأ في الأشجار. المرآة هي فقط ما يلمع. في المرآة يظهر فم أمالي الأحمر.

تمر أمام دار الفراء عجائز قصيرات. تسبقهن ظلال مناديل رؤوسهن السوداء. تسبق الظلال العجائز القصيرات إلى الكنيسة.

تسير أمالي بحذاء أبيض ذي كعب عال على الحجارة المرصوفة. تحمل الالتماس مطوياً بشكل رباعي كحقيبة يد بيضاء صغيرة. يتأرجح ثوبها الأحمر حول بطتي ساقيها. ينتشر (الربيع الإيرلندي) في الحوش. تحت شجرة التفاح يكون ثوب أمالي أكثر دكنة مما هو تحت الشمس.

يرى ڤينديش كيف تُميل أمالي رأس حذائها جانباً أثناء المشي.

تطير خصلة من شعر أمالي فوق بوابة الطريق. تعود البوابة وتنغلق من نفسها.

القداس الكبير

تقف زوجة ڤينديش في الحوش وراء شجرة العنب الأسود. تسأل: «ألن تدخل إلى القداس الكبير؟» توت السياج ينمو من عينيها. الأوراق الخضراء تنمو من ذقنها.

«لن أخرج من الدار»، يقول ڤينديش «كيلا يقول لي الناس: الآن جاء دور ابنتك».

يضع ڤينديش كوعيه على الطاولة. يداه ثقيلتان. يضع ڤينديش وجهه بين يديه الثقيلتين. الشرفة لا تكبر. إنه يوم منير. تتحرك الشرفة للحظة إلى موضع لم يسبق أن كانت فيه. يحس ڤينديش باللكزة. هناك حجر بين ضلوعه.

يغمض ڤينديش عينيه. يحس بحدقتي عينيه في يديه. عيناه بلا وجه.

بعينين عاريتين وبالحجر بين ضلوعه يقول ڤينديش: «ما الإنسان سوى درّاج ثقيل في هذه الدنيا». ما يسمعه ڤينديش ليس صوته. يحس بفمه العاري. ومَن تكلم كانت الجدران.

تستلقي خنازير الجيران المبقعة بين الجزر البري نائمة. تخرج النساء السود من الكنيسة. الشمس تلمع. ترفعهن فوق الممر بأحذيتهن السوداء الصغيرة. أيديهن طرية من المسبحات. عيونهن ما زالت مشرقة من الصلاة.

من فوق دار الفراء تدق ساعة الكنيسة في عز النهار. الشمس أكبر ساعة فوق دقات الظهيرة. انتهى القداس. السماء حارة.

الممر خال وراء العجائز القصيرات. ينظر ڤينديش على امتداد الدور. يرى نهاية الطريق. يفكر: «كان علي أمالي أن تأتي». هناك إوز على العشب. لونه أبيض مثل حذاء أمالي الأبيض.

الدمعة موجودة في الخزانة. «أمالي لم تملأها»، يفكر ڤينديش «كلما أمطرت لا تكون أمالي في الدار. دائماً تكون في المدينة».

الرصيف يتحرك تحت نور الشمس. الإوزات تنشر أشرعتها. هناك مناديل بيضاء في أجنحتها. حذاء أمالي الأبيض كالثلج لا يعبر القرية.

باب الخزانة يصدر صريراً. الزجاجة تقرقر. هناك على

لسان ڤينديش رصاصة حارقة مبلولة. تنزلق الرصاصة عبر حلقه. في صدغي ڤينديش تئز نار. الرصاصة تتحلل، متحولة إلى خيوط حامية تنسحب عبر جبينه، وتفتح مجاري متعرجة مثل مفرق شعره.

قبعة الشرطي تدور حول نفسها حول إطار المرآة. كتافيتاه تلتمعان. أزرار سترته الزرقاء تنمو من منتصف المرآة. وجه ڤينديش موجود فوق سترة الشرطي.

حيناً، يكون وجه ڤينديش كبيراً ومهيمناً فوق السترة، وأحياناً، مرتين، يميل وجه ڤينديش يائساً ومنكمشاً فوق الكتافيتين. يضحك الشرطي بين خدي ڤينديش. يقول بشفتين مبلولتين: «بطحينك لن تحقق الكثير».

يرفع ڤينديش قبضتيه. تتشظى سترة الشرطي. ثمة بقعة دم على وجه ڤينديش الكبير والمتفوق. يلكم ڤينديش الوجهين الصغيرين الخرعين فوق الكتافيتين حتى الموت.

بصمت تكنس زوجة ڤينديش كسور المرآة.

تقف أمالي في باب الغرفة. هناك بقع حمراء على كسور المرآة. دم ڤينديش أشد احمراراً من ثوب أمالي.

ما زالت بقايا (الربيع الإيرلندي) عالقة ببطتي ساقي أمالي. بقعة المص على عنقها أشد احمراراً من ثوبها. تخلع أمالي حذاءها الأبيض. «تعالوا لنأكل»، تقول زوجة ڤينديش.

البخار يتصاعد من الحساء. أمالي تجلس في الضباب. تحمل الملعقة بروؤس أصابعها الحمراء. تنظر في الحساء. يحرك البخار شفتيها. تنفخ. تجلس زوجة ڤينديش متنهدة في السحابة الخضراء أمام الصحن.

يُسمع حفيف أوراق الشجر عبر النافذة. يفكر ڤينديش: «إنها تطير إلى الحوش. أوراق عشر شجرات تطير إلى الحوش».

يمر ڤينديش بنظره على صِوان أذن أمالي. إنه جزء من نظرته. إنه محمر ومثني كجفن عين.

يبلع ڤينديش قطعة معكرونة بيضاء طرية. تقف في حلقه. يضع ڤينديش الملعقة على الطاولة ويسعل. تمتلئ عيناه بالدمع.

يتقيأ فينديش الحساء في الحساء. هناك مرارٌ في فمه.

يصعد المرار إلى جبهته. صار الحساء في الصحن عكراً ممّا أفرغه فيه.

يرى ڤينديش في صحن الحساء حوشاً واسعاً. يسود الحوشَ مساءٌ صيفي.

العنكبوت

رقص ڤينديش مع برباره أمام قمع الغرامافون العميق من مساء السبت حتى الأحد. أثناء خطوات رقصة الفالس تحدثا عن الحرب.

كان هناك فانوس تحت شجرة السفرجل. كان موضوعاً فوق كرسي.

كانت رقبة برباره رفيعة. رقص ڤينديش مع رقبتها الرفيعة. كان لبرباره فم شاحب. تعلق ڤينديش بأنفاسها. تأرجح. كان التأرجح رقصة.

تحت شجرة السفرجل سقط عنكبوت على شعر برباره. لم ير ڤينديش العنكبوت. مال على أذن برباره. سمع الأغنية الصادرة من القمع عبر ضفيرتها السوداء الثخينة. تحسس عظام رقبتها القاسية.

أضاء قرطا برباره الأخضران أمام الفانوس. دارت برباره حول نفسها. كان الدوران رقصة.

أحست برباره بالعنكبوت على أذنها. ارتعدت وصاحت: «سأموت».

كان الفرّاء يرقص على الرمل. تجاوزهما راقصاً. ضحك. رفع العنكبوت عن أذن برباره. رماه على الرمل. هرسه

بحذائه. كان الهرس رقصة.

استندت برباره على شجرة السفرجل. أمسك ڤينديش جبهتها. مدت برباره يدها إلى أذنها. لم تجد القرط معلقاً في أذنها. لم تبحث برباره عنه. توقفت برباره عن الرقص. بكت. قالت: «لا أبكي بسبب القرط».

في ما بعد، بعد أيام كثيرة، جلس ڤينديش مع برباره على مقعد القرية. كانت رقبة برباره رفيعة. أضاء قرط أخضر، فيما بقيت الأذن الأخرى معتمة في الليل.

سألها ڤينديش متردداً عن ذاك القرط الآخر. نظرت برباره في عينيه وقالت: «أين كان بوسعي البحث عنه؟ أخذه العنكبوت معه إلى الحرب. العناكب تأكل الذهب».

بعد الحرب تبعت برباره العنكبوت. في روسيا عندما ذاب الثلج للمرة الثانية أخذها معه.

ورقة الخس

تلحس أمالي عظمة دجاجة. تخشخش في فمها أوراق الخس. تمسك زوجة ڤينديش جناح دجاجة أمام فمها، تقول: «لقد جرع كل ما لدينا من شناپس»، تنهش بأسنانها الجلدة الصفراء، «بسبب الغمّ».

تغرز أمالي أسنان الشوكة في ورقة خس. ترفع ورقة الخس إلى فمها. ترتعش الورقة من صوتها: «بطحينك لن تحقق الكثير». تنطبق شفتاها بقوة على ورقة الخس مثل يُسروع.

تبتسم زوجة ڤينديش وتقول: «الرجال يشربون لأنهم يعانون». ينفرد تظليل جفني أمالي أزرقَ فوق رموشها وتقول مع ضحكة مخنوقة: «ويعانون لأنهم يشربون». تنظر عبر ورقة خس.

بقعة المص على عنقها تنضج. تصبح زرقاء اللون، وتتحرك عند البلع.

تمص زوجة ڤينديش فقرات عنق الدجاجة الصغيرة البيضاء. تبتلع اللحم القليل حول العنق، تقول: «عندما تتزوجين ابقِ عينيك مفتوحتين، الشرب عادة سيئة». تلحس أمالي رؤوس أصابعها الحمراء وتقول: «وغير صحية».

ينظر ڤينديش إلى العنكبوت الداكن، «العهر أكثر فائدة للصحة».

تخبط زوجة ڤينديش بيدها على الطاولة.

حساء الحشائش

كانت زوجة ڤينديش طوال خمس سنوات في روسيا. نامت هناك في برّاكة ذات أسرّة حديدية. كان القمل يعشش في حواف الأسرة. حلقوا لها شعرها على الصفر. كان وجهها رمادياً وكانت بشرة رأسها متآكلة حتى باتت حمراء.

على الجبال بقي جبل واحد من غيوم وثلج متراكم. على ظهر الشاحنة كان الصقيع يلسعهم. عندما وصلوا إلى المنجم لم يترجل الجميع. كل صباح كان بعض الرجال والنساء يبقون جالسين على مقاعد الشاحنة. يبقون جالسين بعيون مفتوحة. يتركون الجميع يتجاوزونهم، متجمدين برداً، جالسين في الحياة الآخرة.

كان المنجم بارداً، المجاريف ثقيلة، الفحم ثقيلاً.

عندما ذاب الثلج أول مرة، نما في الأودية المتجمدة حشيش رفيع الأوراق مدببها. كانت كتارينا قد باعت معطفها الشتوي لقاء عشر شرائح من الخبز. كانت معدتها مثل قنفذ. كانت كتارينا تقطف كل يوم قبضة يد من الحشيش. حساء الحشيش كان ساخناً وطيّباً، ولبضع ساعات كان القنفذ يسحب إبره.

ثم جاء الثلج الثاني. كان لدى كتارينا غطاء صوفي

تستخدمه كمعطف نهاراً. أخذ القنفذ ينخزها.

عندما يهبط الظلام كانت كتارينا تتبع ضوء الثلج، تنحني، متجاوزة ظل الحارس، تدخل سرير رجل، يعمل طباخاً، أسماها كيتي، دفأها وأعطاها بطاطا ساخنة وحلوة. ولبضع ساعات كان القنفذ يسحب إبره.

عندما ذاب الثلج في المرة الثانية ارتفع حساء حشيشي تحت الأحذية. باعت كتارينا الغطاء الصوفي لقاء عشر شرائح من الخبز. ولبضع ساعات سحب القنفذ إبره.

ثم جاء الثلج الثالث وكانت صدّارة الفرو هي معطف كتارينا.

عندما مات الطباخ جاء ضوء الثلج من براكة أخرى. تسللت كتارينا متجاوزة ظل حارس آخر، لتدخل السرير الحديدي لرجل يعمل طبيباً. سماها كاتيوشا، دفأها وأعطاها قطعة ورق بيضاء، كانت تقريراً طبياً، ولثلاثة أيام لم تضطر كتارينا للذهاب إلى المنجم.

عندما ذاب الثلج في المرة الثالثة باعت كتارينا صدارة الفرو لقاء حفنة سكر. أخذت كتارينا تأكل خبزاً مبلولاً ترش فوقه بعض السكر، ولبضعة أيام سحب القنفذ إبره.

ثم جاء الثلج الرابع. كانت الجوارب الصوفية الرمادية معطف كتارينا.

عندما مات الطبيب جاء ضوء الثلج من حوش المعسكر. تسللت كتارينا متجاوزة الكلب النائم، لتدخل السرير الحديدي لرجل يعمل حفار قبور. كان يدفن حتى الروس في القرية. أسماها كاتيا، دفأها وأعطاها لحماً من ولائم موتى القرية.

عندما ذاب الثلج في المرة الرابعة باعت كتارينا جواربها الصوفية الرمادية لقاء صحن من طحين الذرة. كانت مهلبية الذرة ساخنة فانتفشت. ولبضعة أيام سحب القنفذ إبره.

ثم جاء الثلج الخامس. كان ثوب كتارينا القماشي البني معطفها.

عندما مات حفار القبور لبست كتارينا معطفه. تسللت في الثلج على طول السور. ذهبت إلى عجوز روسية في القرية، تعيش وحدها. كان حفار القبور قد دفن زوجها. تعرفت العجوز الروسية على معطف كتارينا. كان معطف زوجها. تدفأت كتارينا في بيت العجوز وحلبت لها عنزتها. أسمتها العجوز الروسية ديڤوتشكا وأعطتها حليباً.

عندما ذاب الثلج للمرة الخامسة نبتت مع الحشائش عناقيد زهرية صفراء.

سبح في الحساء غبار أصفر. كان حلو المذاق.

ذات يوم بعد الظهر دخلت حوش المعسكر سيارات

خضراء هرست العشب. كانت كتارينا تجلس على صخرة أمام البراكة. رأت آثار وحل العجلات. رأت الحراس الغرباء.

صعدت النساء إلى السيارات الخضراء. لم تتجّه آثار الوحل نحو المنجم. بقيت السيارات الخضراء متوقفة أمام محطة القطار الصغيرة.

ركبت كتارينا في القطار. بكت فرحاً.

عندما عرفت كتارينا أن القطار متوجه نحو الوطن كان حساء الحشيش لا يزال ملتصقاً بيديها.

النورس

شغلت زوجة ڤينديش التلفزيون. تستند المغنية على السور عند البحر. طرف ثوبها يرفرف. تخريمات قميصها الداخلي تعلو ركبتها.

ثمة نورس يطير فوق الماء. بقرب إطار الشاشة تقريباً. رأس جناحه يخترق الغرفة.

«أنا لم أذهب إلى البحر»، تقول زوجة ڤينديش «لو لم يكن البحر بعيداً جداً، لأتت النوارس إلى القرية». ينقض النورس على سطح الماء. يبتلع سمكة.

تبتسم المغنية. لها وجه نورس. تكثر من إغماض وفتح عينيها وفمها كذلك. تغني أغنية عن بنات رومانيا. يريد شعرها أن يصبح ماء، فهو يتحلق على صدغيها على شكل مويجات.

«بنات رومانيا»، تغني المغنية «ناعمات كأزهار المروج في شهر أيار/مايو». يداها تشيران نحو البحر. على الشاطئ يرتعش دغل رملي.

هناك رجل يسبح. يلحق بيديه. يسبح بعيداً. إنه وحده، ولم يعد هناك سماء. رأسه يتقدم. الأمواج قاتمة. النورس أبيض.

وجه المغنية ناعم. تُظهر الريح تخريمات قميصها الداخلي.

تقف زوجة ڤينديش أمام الشاشة. تشير برأس إصبعها إلى ركبة المغنية وتقول: «جميلة هذه التخريمات. إنها حتماً ليست من رومانيا».

تقترب أمالي من الشاشة وتقول: «إنها تماماً مثل تخريمات ثوب الراقصة على الڤاز الأرضي».

تضع زوجة ڤينديش على الطاولة حلوى على شكل هلال. تحت الطاولة يوجد وعاء معدني، تلحس منه القطة الحساء الذي تقيأه ڤينديش.

المغنية تبتسم. تغلق فمها. عقب أغنيتها يصفع البحر الشاطئ. «على والدك أن يعطيك نقوداً من أجل الڤاز الأرضي»، تقول زوجة ڤينديش.

«لا»، تقول أمالي «وفرت النقود بنفسي. أنا سأدفع ثمنه».

البومة الفتية

منذ أسبوع استقرت البومة الفتية في الوادي. يراها الناس كل مساء، وهم عائدون من المدينة. هناك غسق رمادي يخيم على سكة القطار. على جانبي القطار تتمايل أكواز ذرة سوداء غريبة. تقف البومة الفتية بين الشوكيات التي فقدت أزهارها وكأنها تقف على الثلج.

يغادر الناس القطار في المحطة. إنهم صامتون. منذ أسبوع توقف القطار عن الصفير. يضغط الناس حقائبهم إلى أجسامهم. يتخذ كل منهم الطريق إلى داره. إذا التقوا بأحد في الطريق يقولون: «إنها الراحة الأخيرة. غداً ستأتي البومة الفتية لتعوض ما فات من موت».

يرسل الخوري خادم القداس ليصعد إلى برج الكنيسة. تُسمع دقات الناقوس. عندما يعود خادم القداس إلى الأسفل يكون شاحباً. «لست أنا من يشد الناقوس، الناقوس هو الذي يشدني»، يقول «لو لم أتمسك بالعارضة لكنت قد طرت إلى السماء».

ارتبكت البومة الفتية من دقات الناقوس. طارت عائدة إلى السهول. طارت باتجاه الجنوب على طول الدانوب. طارت نحو هدير المياه، حيث يقف جنود.

السهل في الجنوب عار من الأشجار وحار حارق. تولع البومة اليافعة عينيها في الزعرور البري. عندما يعلو جناحاها الأسلاك الشائكة ترجو لنفسها الموت.

يستلقي الجنود في الفجر الرمادي. الأدغال تنتشر بينهم. لديهم مناورة. إنهم في الحرب بأيديهم وأعينهم وجباههم.

يصدر الضابط أمره بصوت عال.

يرى أحد الجنود البومة في الدغل. يضع بندقيته على الحشائش. ينهض. تطير الرصاصة. تصيبه.

الميت هو ابن الخياط. الميت هو ديتمار.

يقول الخوري: «حطت البومة على ضفة الدانوب وهي تفكر بقريتنا».

ينظر ڤينديش إلى دراجته. لقد نقل خبر الرصاصة من القرية إلى الحوش. يقول: «الوضع الآن كما في الحرب».

ترفع زوجة ڤينديش حاجبيها وتقول: «لا ذنب للبومة في الأمر. كان حادثاً». تنزع من شجرة التفاح ورقة صفراء. تنظر إلى ڤينديش من جبهته إلى حذائه. تنظر طويلاً إلى جيب صدر سترته حيث يخفق القلب.

يشعر ڤينديش بجمر في فمه. يصيح: «عقلك قاصر. لا يصل حتى من جبينك إلى فمك». تبكي زوجة ڤينديش وتكور الورقة الصفراء في يدها.

يحس ڤينديش بحبة الرمل تضغط في جبينه. يفكر: «إنها تبكي نفسها وليس الميت. لا تبكي النساء إلا أنفسهن».

مطبخ الصيف

ينام الحارس الليلي على المقعد أمام الطاحون. القبعة السوداء تجعل نومه ناعماً وثقيلاً. جبينه شريط حائل اللون. يفكر ڤينديش: «لا شك أن الضفدع البري قد عاد إلى جبينه». ويرى على خديه الزمن المتوقف.

الحارس الليلي يحكي أثناء المنام. ساقاه ترتعدان. الكلب يعوي. الحارس الليلي يستيقظ. يرفع قبعته عن رأسه فزعاً. جبهته مبللة بالعرق. «ستقتلني»، يقول. صوته عميق. يعود صوته إلى منامه.

«كانت زوجتي راقدة عارية على خشبة تقطيع المعكرونة»، يقول الحارس الليلي «لم يكن جسمها أكبر من جسم طفل. ومن خشبة المعكرونة كان يقطر سائل أصفر. أرض المطبخ مبتلة. وحول الطاولة جلست مجموعة من العجائز، في ثياب سوداء. ضفائرهن كانت مشعثة، فقد مضى عليهن وقت طويل من دون أن يمشطنها. كانت ڤيلما النحيلة ضئيلة بحجم زوجتي. كانت تمسك بيدها قفازاً أسود. قدماها لم تصلا إلى نظرت عبر النافذة، فسقط القفاز من يدها. نظرت ڤيلما النحيلة تحت الكرسي. كانت الأرض خالية. كانت الأرض تحت قدميها بعيدة الغور، مما اضطرها

إلى البكاء. لوت وجهها وقالت: من العار أن يترك الإنسان الموتى راقدين في مطبخ الصيف. أجبتها أني لم أكن على علم بوجود مطبخ صيفي في داري. رفعت زوجتي رأسها عن خشبة المعكرونة وابتسمت. نظرت ڤيلما النحيلة إليها وقالت لها: «لا تنزعجي. ثم قالت لي: إنها تَشِرّ ورائحتها عفنة».

بقي فم الحارس الليلي مفتوحاً. سالت الدموع على خديه.

أمسكه ڤينديش من كتفه وقال: «إنك تدفع نفسك إلى الجنون بنفسك». وصلصلت المفاتيح في جيب سترته.

يدفع ڤينديش باب الطاحون بمقدمة حذائه.

ينظر الحارس الليلي في قبعته السوداء. يسحب ڤينديش الدراجة إلى أمام المقعد ويقول: «سأحصل على الجواز».

حرس الشرف

يقف الشرطي في حوش الخياط. يوزع أقداح الشناپس على الضباط. يوزع أقداح الشناپس على الجنود الذين حملوا التابوت إلى داخل الدار. يرى ڤينديش الكتافيتين ذات النجوم.

يميل الحارس الليلي على ڤينديش ويقول: «الشرطي سعيد لوجود جماعته».

يبقى رئيس البلدية واقفاً تحت شجرة الخوخ. يتعرق. ينظر إلى صفحة ورق بيده. يقول ڤينديش: «إنه لا يستطيع قراءة الخط، لأن المعلمة هي التي كتبت كلمة الدفن».« يريد غداً مساءً كيسي طحين»، يقول الحارس الليلي وتنبعث من فمه رائحة شناپس.

يدخل الخوري إلى الحوش جاراً وراءه قفطانه الأسود على الأرض. بسرعة يغلق الضباط أفواههم. يضع الشرطي زجاجة الشناپس وراء الشجرة.

التابوت معدني. التابوت مغلق باللحام. يلتمع في الحوش مثل علبة دخان عملاقة. يحمل حرس الشرف التابوت ويمشون بخطوة منتظمة خارجين من الحوش بتوافق كامل بين وقع الجزمات وموسيقا المارش.

تمشي السيارة مغطاة بقماش علم أحمر.

تسرع قبعات الرجال السوداء. مناديل رؤوس النساء السوداء تسير الهوينى وراء السيارة ووراء الرجال. إنهن يتعثرن بالعقد السوداء لسُبحاتهن. يمشي حوذي سيارة الموتى على قدميه ويتكلم بصوت مرتفع.

يتمايل حرس الشرف على السيارة، ويتمسكون بالبنادق عند المطبات. أعضاء حرس الشرف يقفون على نحو عال جداً فوق الأرض وعلى نحو عال جداً فوق التابوت.

ما زال قبر العجوز كرونر أسود ومرتفعاً. تقول ڤيلما النحيلة: «لم تستو الأرض بعد، لأن المطر لا يهطل». باقات الزهور الكأسية صارت هشيماً.

تقف ساعية البريد إلى جانب ڤينديش. تقول: «ألا يجدر بالشباب أيضاً أن يحضروا الدفن. الحال هكذا منذ سنوات. كلما مات أحد من القرية لا نجد أحداً من الشباب عند الدفن». تسقط دمعة من عينها على يدها. تتابع: «على أمالي أن تجري المقابلة صباح الأحد».

المقرئة تنشد في أذن الخوري. البخور يهرس فمها. إنها تنشد بجمود وقدسية بحيث ينتفخ بياض عينيها جداً ويسيل على بؤبؤيها بتراخٍ.

ساعية البريد تنتحب. تمسك ڤينديش من كوعه وتقول:

«ولتحضر معها كيسي طحين».

يستمر جرس الكنيسة في القرع حتى يتجرح لسانه. فوق القبور تنطلق رصاصات حرس الشرف عالياً. بكتل ثقيلة تهوي التربة على معدن التابوت.

تتوقف المقرئة عند صليب البطولة. تبحث بزوايا عينيها عن موطئ قدميها. تنظر إلى ڤينديش. تسعل. يسمع ڤينديش غشاء حلقها يتمزق من شدة الإنشاد.

«على أمالي» تقول «أن تحضر إلى الخوري بعد ظهر السبت للبحث عن شهادة العماد في السجل».

تنهي زوجة ڤينديش صلاتها. تمشي خطوتين. تقف أمام المرتلة وجهاً لوجه وتقول: «أظن أن موضوع شهادة العماد ليس مستعجلاً جداً». «بل مستعجل جداً»، تقول المقرئة وتضيف: «قال الشرطي للخوري إن جوازاتكم جاهزة في مكتب الجوازات».

تكوِّر زوجة ڤينديش منديل جيبها بيدها. تقول: «يوم السبت ستحضر أمالي معها ڤازاً أرضياً. إنه قابل للكسر»، «لا يمكنها أن تذهب من المحطة إلى الخوري مباشرة»، يقول ڤينديش، فتجيب المرتلة: «فلتذهب إلى الدار أولاً، ولتحضر إلى الخوري بعد قليل. فالنهارات باتت طويلة».

خزانة المطبخ فارغة. زوجة ڤينديش تصفق أبوابها. تقف الغجرية القصيرة القادمة من القرية المجاورة في وسط المطبخ، حيث كانت طاولة الطعام. تُدخل أواني الطبخ في كيسها العميق. تفك عقدة منديل جيبها. تعطي زوجة ڤينديش خمسة وعشرين لاي وتقول: «لا أملك أكثر من ذلك». اللسان الأحمر يتدلى من ضفيرتها. تضيف: «أعطني ثوباً أيضاً. الغجر يجلبون الحظ».

تعطيها زوجة ڤينديش ثوب أمالي الأحمر وتقول: «اذهبي الآن». تشير الغجرية إلى إبريق الشاي وتقول: «وإبريق الشاي أيضاً. سأجلب لك الحظ».

الحلاّبة ذات منديل الرأس الأزرق تنقل عوارض السرير الخشبية عبر البوابة على عربة جر وقد ربطت الوسائد القديمة على ظهرها.

يُري ڤينديش التلفزيون للرجل ذي القبعة الصغيرة. يضغط زر التشغيل فتصدر الشاشة صوتاً. يحمل الرجل التلفزيون إلى الخارج. يضعه على طاولة الشرفة. يأخذ ڤينديش من يده الأوراق النقدية.

أمام الدار تقف عربة يجرها حصان. هناك حلاّب

وحلاّبة يقفان عند المساحة البيضاء حيث كان السرير، إنهما يفحصان الخزانة وطاولة التواليت. «المرآة مكسورة»، تقول لهما زوجة ڤينديش. ترفع الحلابة كرسياً وتفحص أسفل المقعد. ينقر الحلاب بأصابعه على الطاولة. «الخشب سليم»، يقول ڤينديش «مثل قطع الأثاث هذه لم تعد موجودة في السوق».

الغرفة فارغة. تسير عربة الخيل على الطريق وعليها الخزانة التي تبدو أرجل الكراسي إلى جانبها. إنها تطرطق مثل الدواليب. على العشب أمام الدار تقف طاولة التواليت والمنضدة. تجلس الحلابة على العشب وتتابع العربة بعينيها.

تلف ساعية البريد الستائر بالصحيفة. تنظر إلى البراد. «إنه مباع»، تقول زوجة ڤينديش «مساء اليوم سيأتي عامل الجرار ليأخذه».

الدجاج راقد ورؤوسه على الأرض والأرجل مربوطة معاً. تضع ڤيلما النحيلة الدجاج في سلة المرعى. «الديك كان أعمى. اضطررت إلى ذبحه»، تقول زوجة ڤينديش. تعد ڤيلما النحيلة الأوراق النقدية. تمد زوجة ڤينديش يدها.

يضع الخياط شريطاً أسود على رأس قبته. يلف السجادة. تنظر زوجة ڤينديش إلى يديه. «لا مهرب من القدر»، تقول متنهدة.

تنظر أمالي عبر النافذة إلى شجرة التفاح. «لا أدري»، يقول الخياط «إنه لم يرتكب أي إثم في هذه الدنيا».

تشعر أمالي بالبكاء في حلقها. تستند على حافة النافذة. تمد رأسها من النافذة. تسمع الطلقة.

يقف ڤينديش مع الحارس الليلي في الحوش. «هناك طحان جديد في القرية»، يقول الحارس الليلي «إنه روماني بقبعة صغيرة، قادم من منطقة طواحين مائية». يضع الحارس الليلي على منصب الحمل في الدراجة قمصاناً وسترات وبناطيل. يمد يده إلى جيبه. «قلت، هذه هدية لك»، يقول ڤينديش.

تشد زوجة ڤينديش مئزرها وتقول: «خذها. إنه راغب بإهدائها لك. ما زالت هناك كومة من الثياب العتيقة للغجر»، تقرص خدها وتردف: «فالغجر يجلبون الحظ».

حظيرة الغنم

يقف الطحان الجديد في الشرفة. «أرسلني رئيس البلدية إلى هنا. سأسكن هنا»، قال.

قبعته الصغيرة مائلة على رأسه. صدريته المصنوعة من الفرو جديدة. ينظر إلى طاولة الشرفة. «سأحتاجها». يتجول عبر الدار. يتبعه ڤينديش. تسير زوجة ڤينديش حافية وراءهما.

يعاين الطحان الجديد باب الردهة. يضغط القبضة ويقول: «الباب قديم». يميل على إطار الباب وينظر إلى الغرفة الفارغة. «أخبرني أن الدار مفروشة»، قال. «كيف مفروشة»، يسأله ڤينديش «مفروشاتي الخاصة بعتها».

تغادر زوجة ڤينديش الردهة وهي تضرب الأرض بكعبيها. يتحسس ڤينديش صدغيه.

يتفحص الطحان الجديد جدران الغرفة والسقف. يفتح النافذة ويغلقها. يضغط مقدمة حذائه على عوارض الأرضية الخشبية، ويقول: «إذن سأهاتِفُ زوجتي وأطلب منها أن تحضر مفروشاتنا معها».

يخرج الطحان إلى الحوش. يتفحص السياج. يرى خنازير الجار المبقعة. يقول: «عندي عشرة خنازير وستة وعشرون خروفاً. أين حظيرة الخراف؟»

ينظر ڤينديش إلى الأوراق الصفراء فوق التراب ويقول: «لم يسبق أن كان عندنا خراف قط». تأتي زوجة ڤينديش إلى الحوش حاملة المكنسة، وتقول: «الألمان لا يربون خرافاً». المكنسة تخشخش على التراب.

«المستودع ملائم ككراج»، يقول الطحان «سأدبر بعض العوارض الخشبية لأبني حظيرة للخراف».

يصافح الطحان الجديد ڤينديش قائلاً: «الطاحون جميلة».

تكنس زوجة ڤينديش التراب بدوائر موجية كبيرة.

تجلس أمالي على الأرض. أقداح النبيذ مرتبة وراء بعضها بعضاً حسب الحجم. أقداح الشناپس تلتمع. الزهور الحليبية جامدة وسط صحاف الفاكهة. المزهريات مصفوفة عند جدار الغرفة. وفي زاوية الغرفة يقف الفاز الأرضي.

تضع أمالي في راحة يدها العلبة الصغيرة التي تحتوي الدمعة.

تسمع أمالي في صدغيها صوت الخياط: «إنه لم يرتكب أي إثم في هذه الدنيا». ثمة جمرة تشتعل في جبين أمالي.

تحس أمالي بفم الشرطي على عنقها. رائحة أنفاسه مشبعة بالكحول. يضغط يديه على ركبتيها. يرفع ثوبها. «ما أحلاكِ» يقول الشرطي. قبعته ملقاة إلى جانب حذائه. أزرار سترته تلتمع.

يفك الشرطي أزرار سترته وهو يقول: «اخلعي ثيابك». تحت السترة الزرقاء يظهر صليب فضي. يخلع الخوري قفطانه. يبعد خصلة شعر عن خد أمالي ويقول: «امسحي أحمر الشفاه عن شفتيك». يقبل الشرطي كتف أمالي. يتدلى الصليب الفضي أمام فمه. يربت الخوري على فخذ

أمالي ويقول: «اخلعي قميصك».

عبر الباب المفتوح ترى أمالي المذبح. هناك تلفون أسود بين الورود. يتدلى الصليب الفضي بين ثديي أمالي. تضغط يد الشرطي ثديي أمالي. «لديك تفاحتان جميلتان»، يقول الخوري. فمه مبلول. شعر أمالي يتدلى من على حافة السرير. حذاء أمالي الأبيض موجود تحت الكرسي. يهمس الشرطي: «رائحتك طيبة». يدا الخوري بيضاوان. ثوب أمالي الأحمر يضيء أسفل السرير الحديدي. يرن التلفون الأسود بين الورود الحمراء. «أنا مشغول الآن» يقول الشرطي لاهثاً. فخذا الخوري ثقيلان. «صلّبي ساقيك على ظهري»، يهمس الخوري. يضغط الصليب الفضي على كتف أمالي. جبهة الشرطي مبلولة. «استديري»، يقول الشرطي. القفطان الأسود معلق على المسمار الطويل وراء الباب. أنف الخوري بارد. «يا ملاكي الصغير»، يقول لاهثاً.

تحس أمالي بكعبي حذائها الأبيض في بطنها. ينتقل حريق جمرة الجبين إلى العينين. لسان أمالي يضغط في فمها. يتلألأ الصليب الفضي في لوح زجاج النافذة. هناك ظل في شجرة التفاح. الظل أسود ومشعث. الظل قبر.

يقف ڤينديش على عتبة الباب. «هل أصابك الطرش؟»

يقول ويناول أمالي الحقيبة الكبيرة. تدير أمالي وجهها نحو الباب. وجنتاها مبلولتان. «أعرف أن الوداع صعب»، يقول. يبدو كبيراً جداً في الغرفة الفارغة. «الحال الآن كما كان أيام الحرب. يذهب الإنسان دون أن يعرف ما إذا كان سيعود وكيف ومتى».

تعيد أمالي ملء الدمعة. «ماء البئر لا يجعلها شديدة البلل»، تقول. تضع زوجة ڤينديش الصحون في الحقيبة. تأخذ الدمعة في راحة يدها. عظما خديها طريان وشفتاها رطبتان. تقول: «لا أصدق وجود شيء كهذا».

يشعر ڤينديش بصوتها في رأسه. يرمي معطفه في الحقيبة وهو يصرخ: «لقد مللتها. لا أريد رؤيتها بعد الآن». ينكس رأسه ثم يضيف بصوت خافت: «لا يأتي منها سوى جعل الناس حزانى».

تضع زوجة ڤينديش أدوات الأكل بين الصحون وتقول: «تماماً». ينظر ڤينديش إلى صورته في جواز السفر. يؤرجح رأسه ويقول: «إنها خطوة صعبة».

زجاجيات أمالي تلتمع في الحقيبة. تنمو البقع البيضاء على جدران الغرفة. أرض الغرفة باردة. ترمي اللمبة ظلالاً طويلة في الحقيبة.

يضع ڤينديش جوازات السفر في جيب سترته. «من

يدري إلام ستؤول حالنا»، تقول زوجة ڤينديش متنهدة.
يحدق ڤينديش في أشعة النور الحادة الصادرة عن اللمبة.
تغلق أمالي وزوجة ڤينديش الحقائب.

تمويج الشعر

في السور تصر دراجة من خشب. فوق في السماء تسبح بهدوء دراجة من سحب بيضاء. الغيوم حول السحب البيضاء ماء. رمادية وخاوية مثل بركة. حول البركة جبال ساكنة فحسب. جبال رمادية ملؤها الحنين إلى الوطن.

يحمل ڤينديش حقيبتين كبيرتين، وتحمل زوجة ڤينديش حقيبتين كبيرتين. رأسها يمشي بسرعة كبيرة. رأسها صغير جداً. عظما خديها محاطان بالعتمة. لقد قصت زوجة ڤينديش ضفيرتها وموَّجت شعرها القصير بصورة دائمة. يبدو فمها قاسياً وضيّقاً من طقم الأسنان الجديد. إنها تحكي بصوت مرتفع.

تتطاير خصلة من شعر أمالي في أغصان شجرة الزان أمام حديقة الكنيسة، تعود الخصلة إلى أذنها.

الموضع المنخفض متشقق ورمادي. تقف الحورة مثل مكنسة في السماء.

يسوع نائم على الصليب إلى جانب باب الكنيسة. عندما يستيقظ. سيكون هواء القرية أفتح من جلده العاري.

باب مكتب البريد مقفل بجنزير وقفل. المفتاح لدى ساعية البريد في دارها. المفتاح يفتح القفل. يفتح الفراش

للمقابلات الرسمية.

تحمل أمالي حقيبتها الثقيلة المملوءة بالزجاجيات. حقيبة يدها معلقة على كتفها. علبة الدمعة موجودة داخل حقيبة يدها. باليد الأخرى تحمل أمالي الفاز الأرضي ذا الراقصة.

القرية صغيرة. هناك ناس يمشون في الطرق الفرعية. إنهم بعيدون ويزدادون بعداً. أكواز الذرة عند نهايات الطرق تماثل جداراً أسود.

يرى ڤينديش حول سارية المحطة أفواج الزمن الراكد. على السكة امتد غطاء حليبي يصل إلى الكعبين. هناك جلد زجاجي فوق الغطاء الحليبي. الزمن الراكد يحتوي الحقائب. يشد الأذرع. يجرجر ڤينديش ساقيه فوق الحصى. يتهاوى.

درجات القطار عالية. يرفع ڤينديش حذاءه من الغطاء الحليبي.

تمسح زوجة ڤينديش بمنديل جيبها الغبار عن مقاعد القطار. تضع أمالي الفاز الأرضي على ركبتيها. يضغط ڤينديش وجهه على زجاج النافذة. هناك على جدار عربة القطار صورة للبحر الأسود. ماؤه ساكن. الصورة تهتز. تسافر معهم.

«سأشعر بالإقياء في الطائرة»، يقول ڤينديش «أعرف هذا من أيام الحرب». تضحك زوجة ڤينديش. طقم أسنانها يطرطق.

بدلة ڤينديش تبدو منكمشة. كمّاه يسحبان يديه. «لقد فصّلها لك الخياط ضيقة. قماش ثمين راح سدى»، تقول زوجة ڤينديش.

يشعر ڤينديش أثناء السفر بامتلاء جبينه بالرمل شيئاً فشيئاً. رأسه ثقيل. عيناه تسقطان في النوم. يداه ترتجفان. ساقاه ترتعدان وهما يقظتان. يرى ڤينديش من النافذة أدغالاً صدئة اللون ولمدى بعيد. «منذ أن أخذت البومة ابن الخياط، لم يعد قادراً على التفكير»، يقول ڤينديش. تسند زوجة ڤينديش ذقنها بيدها.

رأس أمالي مائل على كتفها. شعرها يغطي خديها. إنها نائمة. «تستطيع النوم»، تقول زوجة ڤينديش.

« منذ أن ذهبت ضفيرتي ما عدت أدري كيف أحمل رأسي». ثوبها الجديد ذو القبة البيضاء المطرزة يلمع أخضر كالماء.

يصلصل القطار فوق الجسر المعدني. البحر على جدار عربة القطار يتأرجح فوق النهر. في النهر قليل من الماء وكثير من الرمل.

يتابع ڤينديش بعينيه خفق أجنحة الطيور الصغيرة وهي في أسراب ممزقة. إنها تبحث عن غابات في منطقة الآو، حيث لا يوجد سوى أدغال ورمل وماء.

يبطئ القطار سرعته بسبب تداخل السكك لاقتراب المدينة. قبل المدينة توجد أكوام من حديد عتيق. ومنازل صغيرة في حدائق متشابكة. يرى ڤينديش كثيراً من السكك تتداخل ببعضها. يرى على السكك المتداخلة قطارات أجنبية متوقفة.

الصليب الذهبي يتدلى كعقد فوق الثوب الأخضر. الصليب محاط بكثير من الخضرة.

تحرك زوجة ڤينديش ذراعها. يتأرجح الصليب على السلسلة الذهبية. ينطلق القطار بسرعة، فقد وجد خطاً حراً بين القطارات الأجنبية.

تنهض زوجة ڤينديش. تنظر عيناها بجمود وثقة. لقد رأت المحطة. تحت المويجات الدائمة في شعرها، وتحت غطاء الجمجمة رتبت زوجة ڤينديش عالمها الجديد الذي تحمل حقائبها الكبيرة إليه. شفتاها مثل رماد بارد. «إن شاء الله سنأتي في الصيف القادم في زيارة»، تقول.

الرصيف متشقق. برك الوحل ابتلعت الماء. يقفل ڤينديش السيارة. تلتمع على مقدمة السيارة دائرة فضية، في داخلها ثلاثة قضبان مثل ثلاثة أصابع. هناك ذباب ميت على غطاء المحرك، وزَرَق طيرٍ على اللوح الزجاجي الأمامي. كتبت على صندوق الحقائب كلمة ديزل. ثمة عربة خيل تصلصل.

عظام الحصانين بارزة، العربة من غبار، الحوذي غريب، له أذنان كبيرتان تحت قبعة صغيرة.

يمشي ڤينديش وزوجته كقطعة قماش واحدة. هو يرتدي بدلة رمادية وهي ترتدي طقماً رمادياً من القماش نفسه.

تلبس زوجة ڤينديش حذاء اسود بكعب عال.

في الموضع المنخفض يحس ڤينديش أن الشقوق تحت حذائه تجذبه. على بطتي ساقي زوجته الشاحبتين تتشعب أوردة زرقاء.

تنظر زوجة ڤينديش إلى السطوح الحمراء المائلة وتقول: «وكأننا لم نسكن هنا مطلقاً»، تقول ذلك وكأن السطوح المائلة حصى أحمر تحت حذائها. ثمة شجرة ترمي بظلها على وجهها. تحجرت عظام فكيها. تسحب الشجرة ظلها إليها تاركة تغضنات على ذقن زوجة ڤينديش. صليبها الذهبي يلتمع. تتلقى الشمس التماعه. تبقي الشمس شعلتها على الصليب.

تقف ساعية البريد عند سور أشجار الزان. هناك شرخ في حقيبتها اللماعة. تبرز ساعية البريد خديها لتلقي القُبل. تعطيها زوجة ڤينديش لوح شوكولاته ماركة Ritter-Sport. ورق اللوح السماوي اللون يلتمع. تضع ساعية البريد أصابعها على حافة اللوح الذهبية.

تحرك زوجة ڤينديش الحجارة في عظام فكيها. يتقدم الحارس الليلي من ڤينديش. يرفع قبعته السوداء. يرى ڤينديش عليه قميصه وسترته. تحرك الريح بقعة ظل على ذقن زوجة ڤينديش. تسقط البقعة على سترة طقمها. تحمل زوجة ڤينديش بقعة الظل كقلب ميت إلى جانب قبتها.

«صار عندي زوجة»، يقول الحارس الليلي «تعمل حلابة في حظائر الوادي».

ترى زوجة ڤينديش الحلابة ذات منديل الرأس الأزرق واقفة إلى جانب دراجة ڤينديش أمام الحانة. تقول: «أعرفها، لقد اشترت سريرنا».

تنظر الحلابة عبر الشارع إلى ساحة الكنيسة. تأكل تفاحة وتنتظر.

«ما عدتَ راغباً بالهجرة إذن؟» يسأله ڤينديش. يضغط الحارس الليلي قبعته في يده، يلقي نظرة نحو الحانة ويقول: «سأبقى هنا».

يرى ڤينديش آثار الوحل على قميصه. على رقبة الحارس الليلي يدق وريد في الزمن الراكد. «زوجتي تنتظرني»، يقول الحارس الليلي مشيراً نحو الحانة.

يرفع الخياط قبعته أمام نصب المقاتل. ينظر أثناء المشي

إلى مقدمة حذائه. يقف عند باب الكنيسة إلى جانب ڤيلما النحيلة.

يرفع الحارس الليلي فمه إلى أذن ڤينديش ويقول: «هناك بومة فتية في القرية. تعرف المكان جيداً. وبسببها مرضت ڤيلما النحيلة». يبتسم الحارس الليلي ويتابع: «لكن ڤيلما النحيلة شاطرة. خرجت وطردت البومة». ينظر ثانية باتجاه الحانة ويقول: «أنا ذاهب».

أمام جبين الخياط ترفرف فراشة بيضاء. خدا الخياط شاحبان. مثل ستارة تحت عينيه.

تطير الفراشة البيضاء عبر خد الخياط. ينكّس الخياط رأسه. تطير الفراشة بيضاءَ من دون أن يتكسر جناحاها خارجةً من قفا رأس الخياط. ڤيلما النحيلة تهز بيدها منديل جيب. تطير الفراشة البيضاء عبر صدغها داخلة في رأسها.

يسير الحارس الليلي تحت الأشجار، ساحباً معه دراجة ڤينديش. دائرة السيارة الفضية تخشخش في جيب سترة الحارس الليلي. تسير الحلابة حافية على العشب إلى جانب الدراجة. منديل رأسها الأزرق بقعة ماء تسبح فيها أوراق الأشجار.

تعبر المقرئة ببطء باب الكنيسة حاملة كتاب الأناشيد السميك. إنه كتاب القديس أنطونيوس.

جرس الكنيسة يدق. تقف زوجة ڤينديش على عتبة باب الكنيسة. الأُرغن يدندن عبر شعر ڤينديش في الهواء القاتم. يمشي ڤينديش إلى جانب زوجته عبر الممشى العاري بين المقاعد. كعب حذائها يطرطق على البلاط. يكوّر ڤينديش راحتيه. يتعلق ڤينديش بصليب زوجته الذهبي وعلى خده دمعة من زجاج.

عينا ڤيلما النحيلة تتابعان ڤينديش. تحني رأسها وتقول للخياط: «إنه يرتدي بدلة الجيش النازي. يذهبان إلى تناول القربان وهما لم يعترفا بعد».

– انتهت –

ملاحظة المترجم

يتصف أسلوب كتابة الروائية هِيرْتا موللر بالجملة القصيرة جداً المتبوعة بنقطة. وهي نادراً ما تستخدم الفواصل داخل جُملها. ولهذا يبدو سياق السرد متقطعاً غير سلس. كما تلجأ إلى صور غير مألوفة تلفت النظر بغرابتها. فكأنها بجملها القصيرة وصورها تبني قطعة فسيفساء من كثير من الأحجار الملونة حتى تظهر معالم اللوحة كاملة. وقد يشبه أسلوبها كاميرا تصوير توثق الحالة في لقطات قصيرة منفصلة عن بعضها وليس في مشهد طويل متسق من بداية اللقطة حتى نهايتها.

يختلف هذا الأسلوب عما عرفناه لدى عدد كبير من الأدباء الألمان، وقد أشاد تقرير جائزة نوبل عام 2009 بخصوصية أسلوبها السردي وصورها الغريبة التي تقارب الشعر، إضافة طبعاً إلى مضامين أعمالها.

ومن خصوصية أسلوبها أيضاً الإشارة إلى الأشخاص بوظائفهم دائماً وليس بأسمائهم الصريحة، فهي لا تقول كتارينا مثلاً، بل زوجة ڤينديش دائماً وبصورة تلفت النظر.

وقد حاولت في ترجمتي هذه أن أكون أميناً ما أمكن لأسلوب الكاتبة بهدف إطلاع القارئ العربي على هذه

الخصو صية، ولم ألجأ إلى تطويع أسلوبها إلى ذوق القراءة العربي، وإلا فلن يبقى من مادة القصة سوى مضمونها.

المترجم

دمشق، آب 2010

ما الإنسان سوى دُرّاج كبير في هذه الدنيا

في رومانيا، في عهد شاوشسكو، أثناء ثمانينيات القرن العشرين، تنتظر عائلة ڤينديش، ألمانية الأصل، الحصول على جواز سفر إلى الغرب، وكلما كثر عدد المغادرين من الجيران ذوي الأصول الألمانية في القرية الرومانية، كلما طال انتظار العائلة، فبدت الحياة وكأنها قد توقفت، ولكن فقط عندما باعت الابنة أمالي نفسها لقاء جواز السفر، حصلت العائلة على الأوراق المنشودة.

«ما الإنسان سوى دُرّاج كبير في هذه الدنيا» مثل شعبي روماني استعير فيه عجز جناحي الطائر البري عن الطيران للدلالة على عجز الإنسان في حياته وتجاه مصيره، وفي عام 1986 ظهرت الطبعة الأولى من كتاب هيرتا موللر بهذا العنوان، قدمت فيه وصفاً عميقاً لحياة في قرية تبدو وكأنها تنتمي إلى غابر الأزمان، ومرثاة وداع في الوقت نفسه.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة






9 789948 017660